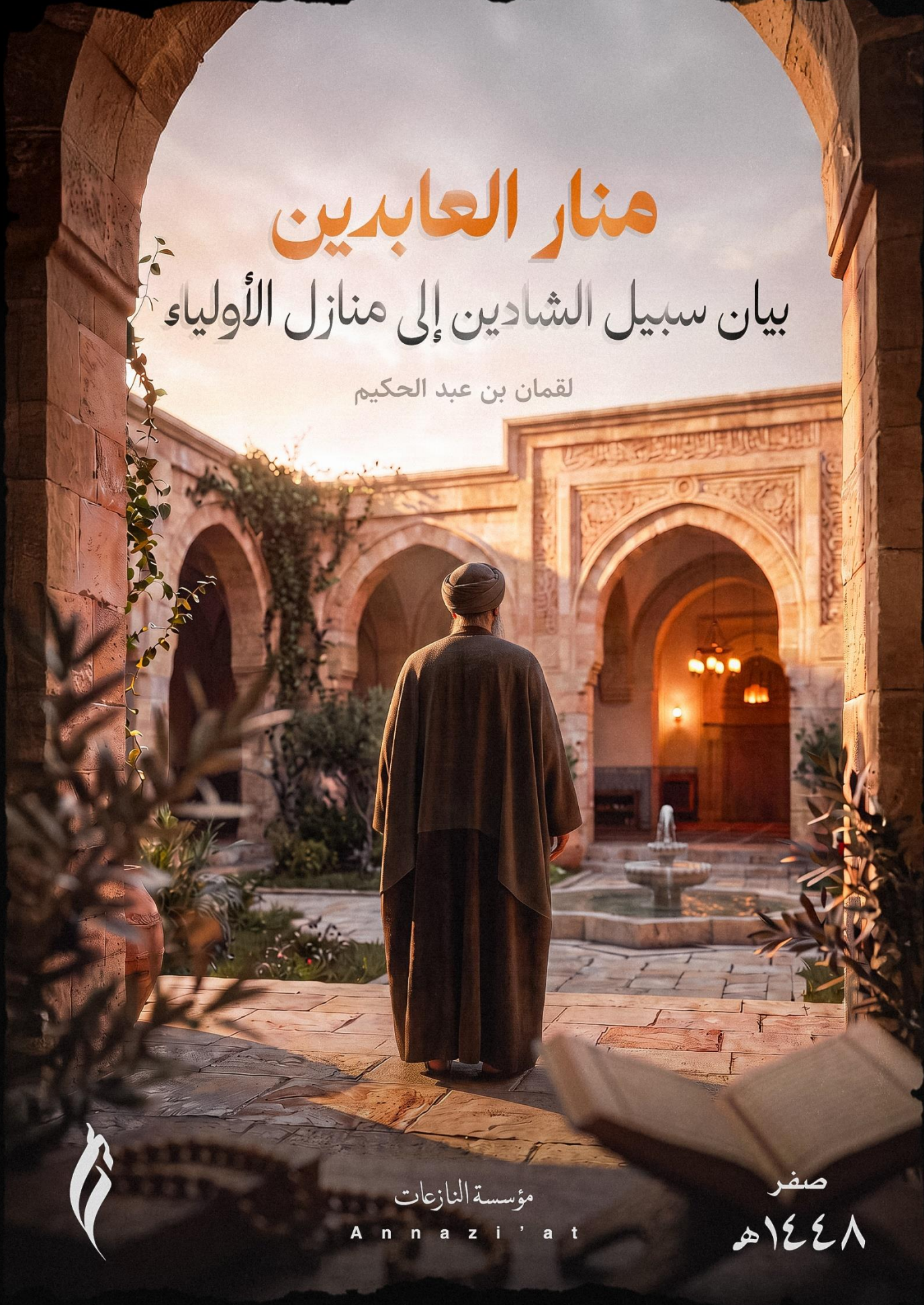
منار العابدين
بيان سبيل الشادين إلى منازل الأولياء
لقمان بن عبد الحكيم
مؤسسة النازعات
Annazi'at
صفر
١٤٤٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

منار العابديه

بيان سبيل الشاديه إلى منازل الأولياء

لقمان به عبد الحكيم

النازعات

صفر ١٤٤٨

فهرس

تمهيد ٤

المقدمات ١٤

الفصل الأول: الفاتحة ٥٥

الفصل الثاني: المجاهدة ٦٩

الفصل الثالث: السكينة ١٠٥

الفصل الرابع: الزاد ١٢٣

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن كثرة التحاق الشباب بركب الدعوة والعمل الإصلاحي فيه خير وشر، ذلك أن الكثرة في غالب الأحيان علاقتها بمستوى الأفراد علاقة انعكاس؛ فكلما كثر الداخلون كان مستواهم دون المأمول، فقد يدخل ضمن هذه الكثرة أناس ليست نيتهم الدعوة إلى الله ولا إصلاح المجتمعات ولا التمكين للشريعة، إنما للاجتماع بالصحب، وملء الأوقات، وكسب الفائدة المادية الناتجة عن هذا الخوض، إلى غير تلك المقاصد من أمراض القلوب.

ومعلوم أن الأكثرين من الناس موصوفون بالمساوئ في نصوص الوحي، وأن الباطل ملتحف بهم إلا ثلة من الصالحين، وقد قال سبحانه في وصف الذين آمنوا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد ١٦]. فالناس -إلا قليلًا ممن عصم الله- يرفعون راية الإيمان دعوى، ويحسب كلٌّ أنه قد أخذ بحظه منه، وأولئك الذين وصفوا بالإيمان، فإنما يحمل

أكثرهم إيمانًا مجملًا أي معرفة عامة، وانقيادَ تقليد، ومحبةً لم تُمحصها الفتن. أما الإيمان المفصل الذي جاء به الرسول ﷺ وربَّى أصحابَه الخُلَّص عليه فمعرفة يقينية، وعلمٌ يورِث بصيرة وسلوكًا، وإقرار يعقبه إذعان وانقياد، ومحبة تلازمها معرفة بضد الحق وشنآن له، فهذا ليس لكل أحد من المقرين بالإيمان المجمل أو الظاهر دون الباطن.. هذا هو إيمان الخواص؛ إيمان الصف الأول، إيمان الصديقين ومَن انصهر في حزبهم، أولئك الذين عرفوا الحق على وجهه، وميزوا الباطل على حقيقته، فحملوا الدين حملًا لا تحتمله القلوب المريضة.. نسأل الله أن نكون من أهل الله وخاصته.

وهذه الطبقة المخصوصة من أهل الإيمان يظهر أثر إيمانها المفصل في سمة جلية من سمات السالكين إلى الله: قوة في الدين؛ تثبت القلب عند عصف الشبهات وتقيه مسالك التشكيك، وتصيره أبعد الناس عن الانخداع بزخارف المموهين. ومعنى هذه القوة أن يبقى الإيمان نقيًّا من مداخل الشك والشبهة، وأن تبقى الأعمال صافية من الوساوس والخطرات الشيطانية؛ فهي قوة تقوم على ركنين هما القوة العلمية التي تميز الحق وتنفذ إليه، والقوة العملية التي تدفع صاحبها إلى امتثال ما عَلِمَه على بصيرة.

فمن كان من الداخلين في مسمى «المصلحين» على حال مَن ذكرنا أولًا من أصحاب الإيمان المجمل من المتلبسين بالمعاصي والآثام المجانبين لمسالك الأولياء.. حق أن يوصف بالنقيض؛ فالمصلح مصلح لنفسه قبل غيره، ولا يمكن له الخوض

في هذا الميدان قبل تحقيق منزلة الوجوب في منازل السائرين ومقامات المتعبدين. أما والحالة كذلك؛ فإن صاحبها مفسد لا فاسد، فالفاسد فاسد في نفسه فقط، وأما المفسد؛ ففاسد في نفسه مفسد لغيره، وقال سبحانه في بعض أوصاف المفسدين مشيرًا إلى العلم بعاقبتهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف ٨٦].

ولعظيم الخوف من وجود مفسدين في صف المصلحين، ولكبير أثرهم على سير العمل الإصلاحي، كان لا بد لكل فرد أن ينظر في نفسه صلاحًا وفسادًا، ذلك أن الفاسد المفسد ليس بالضرورة أن يكون عالمًا بحاله من الفساد، فقد يكون ساهيًا عن حاله يحتاج تذكيرًا، لاهيًا في متاع دنياه على غير هدى، فإذا ما حافظ على تذكير نفسه وتقريعها.. هداه الله صراط الصالحين والمصلحين.

وقد يكون فاسدًا عالمًا بفساد نفسه ملبسًا على الناس لباس الصلاح وأن المصلح فاسد، ومن أمثلة القرآن الصريحة ما ذكر في قصة موسى عليه السلام، إذ قال سبحانه على لسان قومه: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص ١٨-١٩]، ووصف سبحانه المنافقين

بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة ١١-١٢].

والأهم من هذه الخطوة معاينة كبار المصلحين للعاملين دونهم في ميدان الإصلاح من الشباب وغيرهم، مع تزكيتهم وتربيتهم على الصلاح، والكشف عن نفوسهم بين من عنده نفس خبيثة؛ فهذا يقطع من العمل لكونه أشبه بالسرطان في الإفساد، وصاحب نفس حسنة غلفها سواد الذنوب؛ فهذا ينتبه له في العمل على تزكية نفسه، وينتبه منه لكي لا يفسد غيره. ونفس اختلط فيها حق وباطل، ذنب وطاعة؛ فهؤلاء حقهم النظر في أحوالهم وإعانتهم على الترقي في مدارج السالكين.

وهأنذا واضع خطة يومية للسير إلى الله سبحانه، مع فوائد وتنبيهات ونكات تتخلل الكلام، فمن قرأ وقاس على نفسه، هان عليه معرفة موطن قلبه بين الزكاء والخبث، وقد قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس ٩-١٠]. فمن وجد نفسه مطاوعة للعمل العبادي المسطور في هذه الورقات، علم أنه فر من القلب الفاسد المفسد، لكنه مع ذا لا يعلم في أي مرتبة هو حتى يسلك طريق العابدين، ومَن رأى من نفسه انقباضًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فليس له إلا اللهج بالدعاء أن يتداركه الله برحمته قبل أن تبلغ الروح الحلقوم.

وهذا الأخير لا بد أن يعلم –ساعة معرفته بمقام نفسه– أن الشيطان هو الذي أرشده إلى طريق المصلحين، لا لإصلاحه؛ بل لإفساد مَن فيه قابلية لذلك، فإن رحم الله هذا العبد.. قوّاه على شيطانه وقلَبَ سلاحه عليه، فحوَّل وجودَه مع المصلحين إلى مدرسة لإصلاح نفسه دون أن تكون حصنًا يُنخر من داخله. فالاعتراضات التي تحجز السالك ليست عوائق خالصة، وإنما ميادين امتحان، تفرز الصادق من المدعي، فإذا صبر عليها وفهم سننها.. انقلبت من موانع إلى وسائل، ومن قواطع إلى جسور توصله إلى غايته.

ولا أظهر من المفسدين الداخلين في الصف المصلحين بأمر الشيطان من المنافقين باني مسجد الضرار، وقد قال سبحانه فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة ١٠٧-١١٠].

ومَن لم يستطع قلب السلاح على شيطانه، وزادت نفسه وتمادت في باطلها وإفسادها، فليس للجزء الفطري الصالح من قلبه إلا أن يترك مواطن الإصلاح بخيرها وشرها، وينكبَّ على نفسه ويعتزل غيره؛ فإن الأذى الحاصل باختلاطه بهم أعظم درجات من الخير الذي يحصِّله. ولعل الله يهديه بإرادته الخير للمصلحين في بُعده عنهم؛ إذ اعتزاله لهم بهذه النية عمل صالح يتوسل به إلى الله سبحانه بالدعاء، وهذا الفعل بهذه النية دليل بقاء شيء من الإيمان في النفس. فالنفس أرض خصبة تقبل ما يغرس فيها؛ فإن وضع فيها غرس الصلاح أثمر حلاوة تزداد في العمر والوجهة والسلوك، وإن تُركت لجهلها وهوى طباعها نبتَ فيها ما يخرج ثمرًا مرًّا يتعب صاحبه ويبعده عن جادة الهداية. هكذا تعمل النفس: تنبت ما يلقى فيها، خيرًا كان أو شرًّا، ويبقى العبد بين غرس يحيي قلبه، أو غرس يفسده، بحسب ما اختار لنفسه من طريق، والله سبحانه يحيي الميت قبل حياته وبعد مماته؛ فلا يصعب عليه سبحانه إحياء القلب بعد التلبس بالذنوب، قال سبحانه: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾ [الروم: ١٩]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وصنف من هؤلاء استحكم الشيطان من قلبه حتى صار منافقًا خالصًا يمكر بالإسلام وأهله؛ فلا بد لأهل الإصلاح من التنبه لهذا الصنف في بدايات تكونه ثم بتره ورميه بعيدًا عن المجتمع الإصلاحي، وأمر المصلحين بقطيعته دون الاتصال به. وإن بدا منه سلوك نفاقي أو فسوقي فلا بد من فضحه والتشهير به.. ليعلم نفاقه عند العامة حتى لا ينخدع به غافل. وكم دخل في مجتمع الدعاة وطلبة العلم من فسقة ومنافقين ثم سُكت عنهم بورع بارد يزيد في ضلال الضالين. ذلك أن جمعًا من الناس كانوا سُرَّاقًا باسم أموال الصدقات، ومتحرشين باسم إفتاء النساء، وعملاء باسم الجهاد.. وكل هؤلاء سُكت عنهم ورعًا حتى وقعت الكوارث العظام.

لذا؛ كان من أعظم وظائف كبار المصلحين إصلاح الصف الداخلي للطائفة المؤمنة المصلحة المجاهدة، ولا يمكن إصلاحها تمام الإصلاح إلا بالكشف عن مراتب نفوس أهلها، ثم تصنيف كل عامل في مرتبته، ثم العمل عليه بمقتضى التصنيف، وإلا هلك المصالح بالطالح. فليس التصنيف هذا للتشهي والتسلي، إنما لمعرفة مراتب العاملين في الصف الإسلامي ليُعمَل على رفع مستواهم، وهذا من تمام تحقيق العدة التي أمر الله سبحانه بها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولِيُسر تطبيق مسالك التزكية إن كانت مناراتها واضحة، فإني سلكت في التصنيف سبيل عمل اليوم والليلة، إذ قسمت اليوم إلى أربعة أجزاء، لكل جزء أعمال تخصه وأخرى تشترك مع غيره، ونثرت في الكلام فوائد وتنبيهات يحسن فهمها. ولم يكن هذا التصنيف ابتداء إلا لإصلاح نفسي حتى يكون لي برنامج منضبط في السلوك والتعبد، ثم رأيت تحسينه ونشره ليكون فيه نفع لمن أحب، قال حجة الإسلام: «ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك، وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك، فاصغ إلى ما يلقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك»[1].

وقد قسمتُ اليوم إلى:

- **الفاتحة**: من قُبيل الفجر إلى بُعيد الشروق، وهي مرحلة بداية اليوم وأهمها.
- **المجاهدة**: منه إلى العصر، وهي مرحلة العمل والمشقة والتزود الدنيوي، وهي ذروة الصراع مع الشياطين.
- **السكينة**: منه إلى العشاء، وهي مرحلة الراحة والسكينة بعد شقاء العمل اليومي، وهي تستبطن الغفلة لملابسة الرخاء والراحة.
- **الزاد**: منه إلى النوم، وهي مرحلة التزود العبادي حتى يعين الله صاحبه لليوم التالي، ومنها يجتنب العجب الذي قد يأخذ بنفس المتعبد بعد يوم من الصراع.

---

[1] بداية الهداية (ص ٧١).

واعلم أن معالم التزكية ليست اجتماع تراكيب غامضة يتشدق بها أهل العرفان الفلسفي، ولا بكائيات باردة تعتلي حناجر القصاص، ولا رقصات بهلوانية يتفنن فيها الدراويش، فلو كان ذلك كذلك لفرح بها الشيطان وفرح معه أهل الأهواء. وإنما هي منارات تهدي الساعي إلى الله، تكشف له صراطه المستقيم، وتضيء له دروبه بين ظلمات النفس والشيطان. هي دلالات وإشارات تبين الطريق، وترشده ليميز الصواب من الخطأ، وتجعله على نهج الأولياء المتقين، فيثابر على تقوى الله والعمل الصالح، ويصقل نفسه بالمعرفة والعبادة معًا؛ فالسلوك الحق ليس ممارسة شكليات، بل تربية للنفس على اليقين والثبات، وضبط لها بين الرغبات والهوى، حتى تصير حياته خاضعة للشرع وقلبه موصولا بالرحمن.

لذا؛ أرشد الله سبحانه إلى التزكية بأساليب وطرق منها البرهاني العقلي ومنها العاطفي النفسي، لعلمه سبحانه بما فطر عليه النفس الإنسانية، وأن الناس ينقادون بالعاطفة كما ينقادون بالبرهان أو أشد، فذكر سبحانه الأمر في مواضع من كتابه: منها ما حكاه عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ

وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٣٤].

وقال عن بعثة محمد ﷺ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فنسأل الله الإعانة والتوفيق، والإخلاص في الأقوال والأعمال، وأن يكون ما كتبته نافعًا لي ثم للقراء بإذن الله.

المقدمات

قد خلق الله سبحانه البشر ليبلوهم أيعبدونه دون ما سواه أو يقصدون غيره في التعبد شركًا أو استقلالًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]، و﴿أَحْسَنُ﴾ صيغة مبالغة فيها دلالة على وجود مراتب الحسن لا أن الحال مرتبتان: حسن وسيئ فقط، ومن دلالة المنطوق ما ذكره الله سبحانه من مراتب المتعبدين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، فهذه مراتب ثلاثة للمتعبدين من أهل الإيمان، فأدناهم **ظالم نفسه** الخالط بين الحسنات والسيئات: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]، ثم **المقتصد المعتدل** في حياته بين الحلال والحرام، يجتنب المحرمات ويأتمر بالواجبات، يكبو مرة ويتوب مرات. ثم **السابق بالخيرات**، ومراتب السابقين بالخيرات متفاوتة، قال شيخ الإسلام: «فالظالم لنفسه: أصحاب الذنوب المصرون عليها. والمقتصد: المؤدي للفرائض، المجتنب للمحارم، والسابق للخيرات: هو المؤدي للفرائض، والنوافل، كما في تلك الآيات»[1]. وتجمع الكل صفات المتقين الذين

---

[1] الفرقان (ص ٣٨).

حجبوا أنفسهم عن الحرام وأقبلوا على الله تائبين، وكلهم أو قسمان منهم هم من أولياء الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

مفتتح حياة ابن آدم

وفي لحظة خلق آدم بدأ عمل الشيطان في حربه وصرفه عن عبادة الله سبحانه وتوجيهه لعصيانه، فكان مفتتح حياة الإنسان وسوسة شيطانية، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف ٢٠-٢٥].

وقد توعد الشيطان في مواطن كثيرة أنه سيضل الإنسان ويحرفه عن صراط الله، إذ قال الله مخبرًا عن حال المشركين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ

مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٦-١٢١]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧٩-٨٥].

فكيف يستقيم أن يصطف العبد مع مَن خاصم ربه، ويخاصم مَن أوجده من العدم، وتولى رزقه، ووعده بالجنة. الله هو المنعم ابتداء وانتهاء، خلق فسوَّى، وأعطى فهدى، وفتح باب التوبة بعد الزلة، ووعد بالعودة إلى الجنة فضلًا ورحمة. والشيطان على الضد من ذلك كله: أغوى فأخرج، وكذب فوعد ثم أخلف، وتبرأ ممن تبعه عند أول حساب. فمن قدم وسوسة الشيطان على أمر الله فقد انقلب الميزان في قلبه، وصار يعادي مَن أحسن إليه، ويطيع مَن نصَب له الكمائن؛ فلم يكسب -بعد ذا- إلا الضلال والغواية. فليست المعصية مخالفة أمر، إنما نزوع جوّاني يختار فيه العبد صفه، إما مع الرحمن الذي وعد وأوفى، أو مع الشيطان الذي أغوى وتخلى.

فإن كان ذلك كذلك؛ فإن مفتتح يوم ابن آدم أشبه ما يكون بمفتتح حياة البشرية، ذلك أن البداية هي المحددة لمسار اليوم وربما الأيام القادمة، فإن استطاع الشيطان إغواء المرء بحرفه عن الصراط الحق في مفتتح يومه.. هان عليه إضلاله في باقيه، بل قد يتركه الشيطان لنفسه الأمارة بالسوء لتتصرف هي في إضلاله بعد الخطوة الأولى؛ فيتخبط الإنسان في يومه مصارعًا نفسه وشيطانه، والمتقدم في هذا الصراع هو معسكر الباطل لكونه فاز بالخطوة الأولى من المعركة.

وهذا اليأس عند المرحلة الأولى من طبيعة ابن آدم؛ فلو كان المرء قد خطط ليومه كاملًا بكل تفاصيله، واعتقد حينئذ أنه مخطط واقعي يمكن تطبيقه مبتدئًا به من صلاة الفجر إلى النوم، ثم في بداية يومه أنهكه الشيطان وأغفله عن الفجر، فما قام من نومه إلا بعد انقضاء وقت الوجوب. في هذه الحالة يتجه كثير من الناس إلى ترك المخطط كله والتحسر على الوقت الضائع في التخطيط، وربما ترك الصلاة كلها إن كان أساس مخططه للمواظبة عليها. لذا تكمن أهمية الفترة الأولى من اليوم لكونها منطلق النهار، وفي الغالب هي محدد الرابح في المعركة الإيمانية اليومية.

وإن أحسن المرء تدبير البداية، وكان له العلو والغلبة في المنطلق.. سهل عليه حرب شيطانه ونفسه أثناء المسير اليومي، حتى لو كبا أو وقع في ذنب أو فوت طاعة؛ فإن تقدمه الأول مرجح نصره على شيطانه. ذلك أنه لو أخطأ وزل في منتصف نهاره أو أغفل ما كان دونه، فإن تجاوزَ الأمرِ أسهل لوجود الزاد الإيماني

والعبادي البادئ من أول النهار حتى وقوع الزلل، فوجود هذه المهام المنجزة تدفع عنه اليأس الناشئ من الزلل، بخلاف ما يكون في أول النهار فلا إنجاز يدفع هذا اليأس.

وهكذا حياة الإنسان في هذه الدنيا، يفتتح يومه بالصراع ويختمه به، وبينهما كذلك حتى يقبض الله روحه؛ فإما منتصر على شيطانه فله الجنة فضلًا من الله ورحمة، وإما منهزم فحق عليه العذاب إلا أن يتداركه الله بعفو ومغفرة، قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

والصراع في يومه لا يقتصر أن يكون بينه وشياطين الجن، بل الأمر أعم من ذلك حتى يدخل فيه كل مَن حارب الإيمان وأهله مطلقًا، ومن استجاب لهؤلاء في حياته فسيتخبطون معًا في جهنم. ومن مظاهر ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَآۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ [القصص ٦١-٦٦]، وقال عن الأتباع: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ

وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة ١٦٥-١٦٧]، وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف ٣٧-٣٩].

اجتماع الإرادة والقدرة ومفهوم الإيمان

لا يتحقق عمل المرء إلا باجتماع أمرين، ولا يكون تمام العمل إلا بتمامهما؛ ذلك أن الله ركب نفس الإنسان منهما -أي الإرادة والقدرة- فهما شرطان لتحقق العمل، فما دام هناك إرادة للعمل وقدرة عليه فهو لا بد قائم، وإن تخلف شرط منهما.. تخلف العمل، والعكس كذلك. فعدم العمل دال على تخلف شرط أو الجميع، قال شيخ الإسلام: «فلا يجوز أن يدعي أنه يكون في القلب

إيمان ينافي الكفر بدون أمور ظاهرة: لا قول ولا عمل وهو المطلوب –وذلك تصديق– وذلك لأن القلب إذا تحقق ما فيه أثر في الظاهر ضرورة لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتًا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١] فهذا التلازم أمر ضروري»[1].

والإرادة أصلها القلب وهي ميل النفس للشيء، ولا تتحقق هذه الإرادة إلا برحمة الله ﷻ حين يقذف نور الهداية في القلب، والإنسان يسعى مستعينًا بالله لتحقيق هذه الإرادة بإرضاء الله عنه حتى تصيبه نفحة من نفحات رحمته، قال سبحانه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٩-٣١]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٧-٢٩]،

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٦٤٥).

والإيمان والعمل سبيل إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور كما قال سبحانه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، وروى الشيخان عن النعمان بن بشير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ: كَراعٍ يَرْعى حَوْلَ الحِمى، يُوشِكُ أنْ يُواقِعَهُ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا إنَّ حِمى اللهِ في أرْضِهِ مَحارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ**»[1].

ومن أهم وسائل تحقيق الإرادة للنفس: المعرفة، أي إدراك فضائل العبادة وما أعده الله لصاحبها في الآخرة، ومعرفة رذائل المعصية وما ينتظر فاعلها من العقاب إن تمادى فيها وعمل بها. فالمعصية والغفلة عن ذكر الله تثمر انحرافًا في النظر، وخمولًا في العبادة، وإضاعة للعمر، وقسوة في القلب، ومَحقًا للبركة، وطول هَمٍّ وغَمٍّ وضنْك معيشة. تتولد هذه الموبقات من المعصية والغفلة كما تتولد الريح الكريهة من النتن. وأضداد هذه الشرور تتولد عن الطاعة؛ فتثمر الصلاح

---

[1] البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

والسكينة في النفس، وتقوي القلب بالإيمان، وتكثر العمل بإخلاص. تتولد هذه النعم من التقوى والطاعة كما تتولد الريح الطيبة من المسك. فإذا هشَّمتَ النفس بالذنوب، كان لكل جرح وقع في مقتل إن لم يعالج بالطاعة والتوبة.

ومن الأمارات المغفول عنها في معرفة أثر العلم بفضائل الأعمال على السالك، ما أورده أئمة أهل الحديث والأصول في تقريراتهم الضابطة للعمل بالحديث الضعيف في باب الفضائل. ذلك أنهم اعتقدوا أن الحكم بالضعف لا يعني الضعف يقينًا، إنما هو بغلبة الظن، وقد يكون صحيحًا، وما دام الأمر كذلك وأن ما ورد في فضائل الأعمال ليس فيه زيادة في الشريعة إنما تحبيب بالشرائع الثابتة.. كان قولهم بصحة رواية ما ضعف في الفضائل والأخذ به. ومرجع ذلك: أثر العلم بالفضائل على النفس الإنسانية، فكلما زاد علم الإنسان بفضيلة من فضائل العبادة كلما زاد شوقه إلى تحقيقها بتمامها ليصل إلى أجرها.

وأعلى مقامات المعرفة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، تلك التي تحببه بالله؛ فتغرس في نفسه الحب مما يقوي إرادة التعبد، والأخرى التي تورث الخشية والخوف من الله الدافعين لاجتناب المعاصي والآثام، قال العلامة المحقق: «وقد نظر الله ﷻ حينئذ إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا على آثار من دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا،

فعرف ﷺ الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب، في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتى تجلت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى مَن قبله ولا إلى مَن بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل مَن تكلم في هذا الباب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]»[1]، وقال الحافظ ابن رجب: «وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله، وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع»[2].

ونصوص القرآن في ذلك كثيرة جدًّا؛ منها ما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٨-٣٠]، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]،

---

[1] جلاء الأفهام (ص ١٩٣).

[2] الخشوع في الصلاة (ص ١٤).

وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

والحق أن تطلّب المعرفة وحده لا يكفي لتحقق الإرادة الباعثة على الفعل، فالمعرفة وسيلة تقود الإنسان إلى الشرط الأهم وهو الاستعانة بالله والاطراح بين يديه بالدعاء وطلب المعونة، حتى يوفقه لشرط التعبد ومن ثم للتعبد نفسه.

ومن معالم صحة هذه الإرادة أن يكون هَمُّ المريد توحيد الله بالقصد والطلب، وتحسره على الآثام والذنوب والتقصير في الطاعات وملء وقته بالمباحات دون المطلوبات؛ فيصبح وليس له قصد غير عبادة ربه. فإذا اجتمعت المعرفة بالاستعانة بالله وخلوص القلب لهذه المقاصد، صارت الإرادة قوية وقادرة على دفع النفس

إلى السلوك الصالح؛ فتصبح النفس صاعدة إلى منازل السائرين لله، مستقيمة على الصراط، لا يحرفها الهوى، ولا يضلها الشيطان.

والقدرة هي الشرط الثاني لتحقق الفعل، والمقرر أن الله لا يأمر بما لا يستطاع ولا ينهى عن مستحيل الانفكاك طبعًا عن ابن آدم، فالقدرة متحققة شرعًا في كل أمر ونهي، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧]. وعدم القدرة العرضي في مواطن مانع من لحوق الإثم في عدم التعبد أو ارتكاب المعصية، لكن الإنسان مكلف حين ذاك بالالتزام بالضوابط الشرعية المقررة في حال الاضطرار، ثم هو مكلف بتحقيق القدرة اللازمة التي هي شرط التعبد المأمور به، فقد قال سبحانه في أكل ما لا يحل اضطرارًا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٥﴾ [النحل: ١١٥]. وقال في حالة الكفر للمكرَه:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

وهذان الشرطان مطلوبان وجوبًا للأفعال الواجبة من أمر ونهي، ثم هما مطلوبان استحبابًا فيما استحب من فعل وترك، ولا يزال المؤمن يترقى في هذين الشرطين حتى يترقى في مدارج السالكين.

وترقي الإرادة يكون بزيادة المعرفة والاستعانة بالله ليربط الله له بين ازدياد المعرفة ونور الإيمان، عندها يحصل التلازم بين المعرفة والإرادة، وتزداد الإرادة بتوسع المعرفة. وترقي القدرة عبر رياضة النفس والبدن، فرياضة النفس بالتخلق بالأخلاق الحسنة والعبادات القلبية من الحلم والصبر والرضا وغيرها من العبادات التي تزيد قدرة العبد في الترقي إلى المنازل العليا. ورياضة البدن المعينة على خوض العبادات التي يعجز عنها ضعاف البدن كالجهاد والحج وطول القيام والصيام وغيرها من العبادات، حتى نية كسب المال وإنمائه للصدقة هي من باب زيادة القدرة للارتقاء في التعبد؛ والله يفتح على عبد ما لا يفتحه على آخر، روى أبو نعيم في «الحلية» عن خالد بن معدان قال: «إذا فتح لأحدكم باب خير؛ فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه»[1]، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

---

[1] حلية الأولياء (٥/٢١١).

ومن هذا الباب.. يعلم أن تزكية القصد والإرادة لا تنال بالخواطر الإيمانية العابرة، ولا تستكمل بمجرد صحة المعرفة، إذ لا بد من رياضة عملية للنفس تنقل بها المعاني الإيمانية من جانب الثقل والعبء إلى جانب السجية والطبع؛ فالأخلاق المحمودة لا تولد في النفس تامة، ولا تستقر فيها دفعة واحدة، وإنما تكتسب بالممارسة والمداومة، وتحمل عليها النفس حملًا في أول الأمر، حتى تألفها؛ فينقلب ما كان كلفة إلى طبع، وما كان مجاهدة إلى عادة، روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الحلم» عن رجاء بن حيوة، قال: قال أبو الدرداء: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ومَن يتحرَّ الخير يعطه، ومَن يتوق الشر يوقه»[1].

فالحلم إنما يحصل بكف النفس عند دواعي الغضب، واحتمال الأذى عند ورود أسبابه، مرة بعد مرة، حتى تصير النفس مائلة إليه بطبعها، غير مستثقلة له ولا منازعة عند صدوره. وكذلك الصبر والصدق وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ تبدأ ثقيلة على النفس، ثم تخف بالمداومة، حتى تجري بها الأفعال بغير معارضة شديدة من النفس. وعند هذا الحد تتكامل القدرة العملية للعبد، ويغدو امتثاله أيسر، وثباته عند الفتن أرسخ، إذ لم تعد مجاهدته من الابتداء عند كل ابتلاء، بل يواجهه بنفوس قد سبقت بالتهيئة والتدريب.

---

[1] الحلم (ص ٤٣).

وعلى هذا الوجه يظهر أن الخلل في السلوك كثيرًا ما يرجع إلى ضعف رياضة النفس، لا إلى خفاء الحق ولا إلى فقدان الدليل؛ فمن لم يعوِّد نفسه الخلق المحمود، اضطر إلى منازعتها عند كل موقف، وربما غلبته. أما مَن استقرت الأخلاق في باطنه، فقد سبق إلى الامتثال قبل ورود المحنة، فكان عمله أثبت، وزلله أقل، وعوده إلى الحق أسرع.

ومن الصور القرآنية الرابطة بين الإرادة والقدرة ما حكاه سبحانه عن المنافقين الذين أرادوا مخادعة الله ورسوله بالخروج للجهاد، فعلق سبحانه إرادتهم بإعداد العدة «القدرة»، أي أن لو كان ثم إرادة للخروج لحققوا القدرة عليه، إذ باجتماعها يقع الخروج، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

فسعادة النفس ونجاتها في الدنيا والآخرة تعتمد على توازن العلم الصحيح مع العمل الصادق؛ فالمعرفة الصحيحة وحدها لا تكفي لثبوت الإيمان ورسوخه، بل يجب أن يفهم العبد ذاته وما فيها من مكامن القوة والضعف، وأن يعي طريقه إلى الله وما قد يعرضه للزلل، وأن يدرك خصائص المُضلَّات التي يواجهها في السلوك والعبادة، بهذا الإدراك تتضح له معالم الطريق، ويصبح مستبينًا لما ينبغي فعله واجتنابه، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥]. وأما السلوك الفعلي؛ فهو محتاج إلى استحضار حق الرب على

العبد، والعمل لتحقيقه مخلصًا صادقًا فيه، ومراقبة النفس حال غفلتها عن مراد خالقها؛ فالعبد العارف بأن التساهل في الطاعة يقصر في حق ربه، يدفع نفسه مكرها لها إلى الرجوع للطريق الحق الذي فيه أداء ما عليه، طالبًا الهداية والثبات على الصراط المستقيم، مدركًا أن ضعف الفهم أو تقصير العمل يفتح باب الغضب الإلهي.

ومن أصول هذا الباب معرفة أن أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه كمال الاستسلام له، فإن العبادات في حقائقها تعود إلى هذا المعنى، وتتشعب عنه؛ فليس المقصود مجرد الامتثال الظاهر، ولا كثرة الأفعال المجردة عن الانقياد الباطن، وإنما حقيقة العبودية أن يسلم القلب لربه حكمًا وتقديرًا، ورضا واختيارًا؛ فتنقاد النفس عند الفعل، ويطمئن القلب عند البلاء. ومن هنا كان تمام العبادة أن يزول من القلب منازعة الحكم، وسوء الأدب مع القدر، والاعتراض الخفي على ما يجري به التدبير؛ فإذا استقام هذا الأصل استقامت الجوارح تبعًا له، وصارت الطاعة ثمرة طبيعية للرضا، لا حملًا ثقيلًا على النفس، وكان العبد في جميع أحواله متقلبًا في عبودية واحدة، وإن اختلفت صورها وتنوعت أسبابها، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة ١٢٧-١٣١].

قال الإمام فخر الدين الرازي: «وحاصل الكلام: أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، فلهذا السبب قال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾»[1].

وقال شيخ الإسلام: «فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وفضله عما سواه. والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة. وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فإنه لو أعين على حصوله كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم

---

[1] مفاتيح الغيب (١٨/٤١٤).

يحصل له عبادة لله فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئًا لذاته إلا الله ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك. ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه فهو إلهه الذي لا إله له غيره وهو ربه الذي لا رب له سواه. ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه كان عبدًا لما أحبه وعبدًا لما رجاه بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصّل ما حصّل منها كان مشاهِدًا أن الله هو الذي خلقها وقدّرها وسخّرها له وأن كل ما في السماوات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره وهو مفتقر إليه، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك»[1].

---

[1] العبودية (ص ٩٧-٩٨).

ومن أكبر أسباب الانحراف: جرأة العبد على معصية ربه، مما يورث قطع الإمداد السماوي، حتى يوكل المرء إلى نفسه فتهديه إلى سواء الجحيم. حينئذ لا تنفع أكاذيب النية الصالحة وبياض القلب في دفعه إلى الصلاح، ولا تثمر دعاواه إذا لم يعاود ربط نفسه بالله ليرجع إليه المدد. فبتجديد الطاعة وإخلاص القلب تتصل المعرفة الصحيحة بالإرادة الفاعلة؛ فيصبح العبد قادرًا على ضبط شهواته، ومواجهة وساوس الشيطان ونزعات الهوى، ثابتًا في طريق الاستقامة، محققًا سعادة النفس والروح في الدنيا والآخر، لا تضره الفتن العاصفة، ولا تزيغه الملمات الجارفة، مستعدًا للخير في كل خطوة، ومهيأ لتحقيق مراد ربه في اعتقاده وسلوكه.

يتبين –ساعتئذ– بالنظر الصحيح أن الإيمان حقيقة مركبة من الظاهر والباطن، لا تستقر في القلب دون أن تفيض أثرًا على الجوارح، إذ ما استقر في الباطن من تصديق وتعظيم لا بد أن يثمر إرادة، وهذه الإرادة متى وجدت مع القدرة استتبعت عملًا ظاهرًا. فدعوى الإيمان مع تعطل العمل، وقيام القدرة، وانتفاء المانع؛ علامة انتقاض الإيمان، إذ انتفاء اللازم (العمل) يقتضي انتفاء الملزوم (الإيمان).

ولهذا لا يستقيم ادعاء امتلاء القلب بالإيمان مع الإقامة على الموبقات والنواقض؛ لأن القلب إذا عظم المؤمن به انجذب إلى طاعته، وانقادت له الجوارح تبعا لذلك؛ فالإيمان قوة باعثة، ومحرك داخلي، وكل ما خلا من الأثر دل على ضعف هذه القوة أو تلاشيها.

كما أن سنن الهداية والضلال جارية على مقتضى الأعمال الباطنة والظاهرة؛ إذ يلزم من الطاعة الظاهرة قابلية الهدى، وكلما ارتفع السالك في درجات التعبد كلما زاد إيمانه ومحبة الله له. بينما تنتج المعصية سوادًا وظلمة.. يغلف القلب بالسواد حتى يصير أسود خالصًا لا يقبل حقًّا ولا يرفض منكرًا؛ فالمحبة الإلهية متعلقة بالطاعات، والمقت الإلهي متعلق بالآثام، روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ قالَ: مَن عادى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ**»[1]، وروى الإمام مسلم عن حذيفة قال: كنا عند عمر فقال: «أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟» فقال قوم: «نحن سمعناه»، فقال: «لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟» قالوا: «أجل». قال: «تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟» قال حذيفة: «فأَسكتَ القوم، فقلتُ: أنا»، قال: «أنت؟ لله أبوك»، قال حذيفة: سمعتُ رسول الله ﷺ

---

[1] البخاري (٦٥٠٢).

يقول: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتّى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ**». قال حذيفة: «وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يُكسَر»، قال عمر: «أكسرًا لا أبا لك؟ فلو أنه فتح لعله كان يُعاد»، قلت: «لا، بل يُكسَر، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت، حديثًا ليس بالأغاليط». قال أبو خالد: «فقلت لسعد: يا أبا مالك، ما أسود مربادًّا؟» قال: «شدة البياض في سواد»، قال: قلت: «فما الكوز مجخيًا؟» قال: «منكوسًا»[1].

ومن هذا يُعلم أن للإيمان جهة باطنة وأخرى ظاهرة، متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى فباطنه تصديق القلب وإذعانه ومحبته، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح. وسلامة الظاهر دليل سلامة الباطن، ونقص العمل كاشف عن نقص الإيمان، وقوته شاهد قوته. وكل علم لا يزيد القلب يقينًا، وكل يقين لا يبعث على العمل، فداخله خلل وإن حسنت صورته.

---

[1] مسلم (٢٣١).

وبهذا ينتظم المعنى في أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، تتحقق هذه الأركان جميعًا لتخرج العبد المهتدي السائر إلى الله على بصيرة.

قوى النفس الإنسانية

في نظر جمع من فلاسفة النفس أن الله ركَّب النفس الإنسانية من ثلاث قوى، ورابعة هي محدِّدة لهداية الإنسان أو غوايته بحسب سيطرتها على القوى الثلاثة أو انهزامها واعتزالها مملكة البدن.

أما **الأولى**: فهي «القوة الشهوية» وأساسها إشباع البطن والفرج، وهدفها – بمعزل عن الرشاد الحكمي– هو السير في دركات الشهوة، أي في مزيد من الأكل والجماع، دون النظر إلى الضوابط العقلية والشرعية، ومن هذا الباب سُميت بـ«الحيوانية» لكون صاحبها مأسورًا بالشهوات الحيوانية فقط، أما كمالها الحقيقي الشرعي فبإقامة صلب الإنسان وإنشاء الذرية، والكفاية تتحقق بالأكل الطيب بقدر الحاجة للتعبد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، وبالزواج الشرعي الصحيح الذي هدفه إمتاع النفس بالحلال وإنشاء الذرية الصالحة ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور: ٣٢].

وفضيلة هذه القوة هي «العفة»، أي أن يعف نفسه عن شهوتي البطن والفرج فيما فيهما ضرر في البدن والنفس؛ فالعفة هي الامتناع والترفع عما لا يحل، لا

عن عجز ولا عن فقد داع، بل عن ضبط واستعلاء. وهي كمال في القوة الشهوية إذا استقامت على حدها، فلا تنحل إلى فجور، ولا تنكمش إلى خمود يميت أثرها، بل تقوم وسطًا تحفظ به النفس توازنها؛ فبفقد هذا الوسط.. تنقلب الشهوة رذيلة، إما بإطلاقها حتى الفجور، أو بكبتها حتى البلادة. والعفة إنما هي ملَكة الاعتدال بين هذين الطرفين، قال سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وأما **الثانية**: فهي «القوة الغضبية» التي أساسها انفعال ودفاع عن النفس الإنسانية، وإن تفلتت من القيود صارت قوة «سبُعية» أي أن صاحبها أشبه بسباع البهائم التي ليس لها إلا القتل والحروب بلا هدف عقلي وشرعي، واستقامتها بالدفاع عن النفس الإنسانية دفاعًا مستحقًّا، وبغضبتها لمحارم الله عند الانتهاك. وفضيلتها «الشجاعة» وهي وسط بين الجبن والخور الذين مآلهما خسران الحقوق الإنسانية، والبطش والظلم الذين مآلهما أكل حقوق الناس بالباطل.

وأما **الثالثة**: فهي «القوة الوهمية» التي هدفها التخطيط والتلاعب والتزيين والإيهام، فإن تركت لنفسها صارت قوة «شيطانية» هدفها التلاعب والاحتيال على كل شيء لمجرد ذلك دون هدف حقيقي، وإن قيدها صاحبها بعقال الشرع والعقل صارت تامة بالتخطيط لتحقيق المصالح الشرعية المقررة المرجوة في الشريعة.

وأما القوة **الرابعة** فهي «القوة العاقلة»، فإن كانت هي الحاكم على مملكة النفس، وكانت بقية القوى جنودًا لها.. انصلح حال النفس وانقادت إلى الحق حتى تصير نفسًا «ملكية»، وإن اصطرعت مع بقية القوى؛ فالغالب من القوى يطبع حال النفس الإنسانية بطباعه، أو لا يكون لها طابع واحد أو غالب إنما أخلاط من طباع القوى الأربعة.

لذا؛ تنضبط قيمة الإنسان ووجهته بحسب ما يطلبه ويسعى إليه؛ فمن جعل غايته الآخرة سمت نفسه وارتفعت، وتشبه في سلوكه بالعالم الملائكي. ومَن انحدر مع «حيوانيته» أو اندفع مع «سبُعيته» أو تساهل في «شيطانيته» ثم باعد عن «ملكيته».. انحدر في دركات جحيم الدنيا، كل على قدر ما استولى عليه من شهوة أو غضبة أو وهم. فطالب اللذة أسير قوته الشهوانية، وطالب الغلبة والبطش عبد لقوته الغضبية، وطالب الحيلة مملوك لقوته الشيطانية. وهذه القوى إن لم توزن بالقوة الملكية.. أودت بالعبد إلى أسافل الانحراف، روي عن الإمام الصادق في وصيته لعبد الله بن جندب: «يا ابن جندب، إن الله ﷻ لم يبعث نبيًّا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر؛ فكونوا أمناء في أنفسكم، حافظين لعقولكم، فإن العقل دليل المؤمن، وإن الله ﷻ لا يعبد بشيء أفضل من العقل».

ومتى خرج العقل عن لذة الشهوة وإغلاق الغضب وعشق الخيال، استعادت النفس العاقلة سيادتها على المملكة؛ إذ الداء العضال أن يحكم المرء شهوته أو

غضبه أو وهمه؛ فينقلب الإنسان من نفس عاقلة إلى ما دون ذلك. فغياب العقل يفتح باب الشهوة، والشهوة يلزم عنها الغضب، والغضب باعث للحيل. وكلها جارة النفس إلى مهاوي الشرك.

ولهذا كانت أصول الفضائل راجعة إلى ضبط هذه القوى؛ فالفهم الصحيح يحفظ القوة الوهمية من الجهل والتعدي ويورثها الحكمة. والعدل والنجدة يكبحان الغضب ليصرف في موطنه. والجود والصوم يطهران النفس من شهوة التعلق بالمال والنساء. وبمقابلها تتكون الرذائل عند اختلال هذه الأصول؛ فالأخلاق ليست دعاوى ولا معارف ذهنية، وإنما هي صفات راسخة تتكون بالفعل الصادق المتكرر، قال العلامة المحقق: «وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل. **فالصبر**: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة. **والعفة**: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحش والبخل والكذب والغيبة والنميمة. **والشجاعة**: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها أمسك عنانها، وكبحها بلجامها عن التسرع والبطش، كما قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ**

بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]. وهذه حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها على قهر خصمه. **والعدل**: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس»[2].

ومن هنا؛ فإن تحصيل الفضائل واجتناب الرذائل لا يتقرر بالتغني بحسن الخير وقبح الشر، وإنما بأَطر النفس على العمل بما تعلم من الصلاح، واحتمال المشقة الناشئة عن ذلك، حتى تنطبع صفات الخير في النفس وتصبح ملكة راسخة. فكما أن مَن لم يجد بماله ونفسه لا يعرف من الكرم إلا الاسم، كذلك مَن لم يكبح شهوته ولم يضبط غضبه، ولم يقمع تخييله لا ينال من العفة والعدل والحكمة إلا ألفاظها، والمعرفة التي لا تثمر عملًا.. تزول آثارها مسرعة كأن لم تكن يومًا؛ فصلاح النفس إنما يقوم على اجتماع مقصد صحيح وإرادة صادقة، وعلى عقل

---

[1] البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

[2] مدارج السالكين (٣/٣٢).

حكيم ونفس عفيفة وسلطة عادلة وخيال منضبط، وعلى دوام العمل المرسخ لهذه المعاني في النفس.

مفهوم التقوى

والتقوى في مفهوم الشرع هي إقامة النفس في موضع الوقاية الدائمة من أسباب السخط؛ بحجزها عن موارد المعصية، وصرفها إلى طاعة الله قصدًا واختيارًا، اتقاء لغضبه بفعل المأمورات وترك المنهيات. ولا تستقر هذه الحالة إلا حين تتصدر القوة العاقلة للحكم، فتقود سائر القوى، وتخضع النفس لحاكمية الشريعة خضوعًا فعليًّا تحكيمًا في الأفعال، ورضا في الباطن، وتسليمًا في الإرادة، حتى تزول الممانعة الداخلية، وينقطع الحرج عن الامتثال، فتغدو النفس منقادة للحكم الشرعي انقيادًا ملكيًّا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وحقيقة هذا الاتقاء: صيانة النفس عما يحرفها في الدنيا ولو كان من المباحات، فإن كثرة التلبس بالمباحات بريد الوقوع في المعاصي، والغرق في المعاصي بريد الشرك؛ لذلك قصرها على ما ينفعها في آخرتها هو غاية المطالب ومرام الزاهدين، ولا يصل السالك إلى هذه المرتبة إلا بكثرة التعبد والانتباه إلى القلب من الوقوع في المزالق والمضلات.

قال حجة الإسلام: «فإن قلت: فما بداية الهداية لأجرب بها نفسي، فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى، ونهايتها باطنة التقوى؛ فلا عاقبة إلا بالتقوى، ولا هداية إلا للمتقين. والتقوى، عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، فهما قسمان»[1].

والأمر بالتقوى دعوة عامة الأنبياء كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]. وقد ورد في قصص القرآن عن الأنبياء الكثير، من ذلك قوله سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [العنكبوت: ١٦].

وموسى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف: ١٧١].

وعيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

---

[1] بداية الهداية (ص ٦٦).

ونوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٠].

وهود عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥].

وصالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥].

ولوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء ١٦٠-١٦٤].

وشعيب عليه السلام: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء ١٧٦-١٨٠].

لذا؛ يبدأ السالك مريد التقوى بكف القلب والجوارح عن الموبقات وعن الإصرار على ما دونها، وبهذا السلوك يحقق الشادي بدايات الطريق، وينتهي من هذه الرتبة بالبعد عن المحرمات كلها والإتيان بما استطاع من الطاعات وأولها ما يجب.

ثم رتبة التحرز من المكروهات والإتيان بما استطاع من المستحبات والمندوبات، وهذه رتبة يتقالّها مَن بدأ الطريق.. وليتنا نصل إليها، وإن وصلنا فليتنا نداوم.

وأعلاها رتبة الانصراف عن الفضول وما لا يعني من أمور للدنيا غير المرتبطة بالآخرة، فلا ينشغل المتعبد إلا بالله؛ في نومه ويقظته، شغله وفراغه، صحته وسقمه.. كلها منذورة لله دون التفات إلى الدنيا وزخارفها. وهذه مرتبة لا يصل إليها إلا القليل من الأولياء.

والموصل حقيقة إلى هذه المراتب من البداية إلى الفناء في الله هو العدل؛ فلا تنضبط قوى النفس المتخالفة إلا بالعدل، فإن حكم العقل وعدل بين القوى، وصل الإنسان في نفسه إلى أعالي الكمال في كل قوة منها، والعدل هو الوقوف عند الحدود التي وضعت لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ومتى اختل هذا الميزان بان الإفراط أو التفريط، وظهر النقص في عمل الظاهر والباطن.

ومن هنا كانت معرفة الحلال والحرام أشرف العلوم وأعلاها وأكثرها نفعًا للناس، إذ بها يدرك موضع الطاعة من المعصية، وتضبط حركة النفس والبدن في أفعالها وأحوالها. والطاهر من الناس من جمع بين العلم والعمل؛ فاستقامت نفسه

على الصراط، وصحت إرادته نتيجة العلم، وسار إلى الله على بصيرة بعد استبانة سبيل الله وسبل المجرمين، متحققا بالتقوى بوصفها نظاما شاملا لإدارة النفس، لا دعوى عارضة ولا حالا منفصلا عن العمل.

قال الحافظ ابن رجب: «فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح كلها تبعا لخشوعه، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»[1]. وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع. وروي عنه ﷺ: «**أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ عِلْمًا نَافِعًا**»[2]. وفي حديث آخر قال: «**سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**»[3]»[4].

وبالعلم يدرك المتعبد كيفية محاسبة النفس وميقات ذلك، فلا يغلو في المحاسبة حتى يخرج عن حدها المقرر شرعًا، ولا يستهين في أمر المحاسبة حتى يختلط الكبر في نفسه اختلاط الدم بالجسد. روى ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» عن

---

[1] مسلم (٢٧٢٢).

[2] ابن ماجه (٩٢٥).

[3] ابن ماجه (٣٨٤٣).

[4] ورثة الأنبياء (ص ١٦).

ميمون بن مهران قال: «لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه»[1].

ارتباط الجزاء الدنيوي بالأخروي

من مضلات الإنسان اعتقاده أن الثواب والعقاب أخرويان فقط، ثم يضله الشيطان بالأمل البعيد والتكثر من الدنيا، عند ذلك يفضِّل متعة الدنيا الحالية على الحياة الآخرة الدائمة ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، ونقض هذه المضلات من وجهين:

الأول: أن الحياة الدنيا لا يقارن طول مدتها بالآخرة؛ فالدنيا سنوات معدودات غير محددة بمدة معلومة للإنسان، ومهما طال عمره فهي زائلة. أما الآخرة فأبدية سرمدية لا نهاية لها ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]. وبهذا الميزان يتبين أن لذات الدنيا وآلامها لا تقاس بآثار الآخرة زمنًا؛ فإن ما يناله العبد هنا عارض سريع الانقضاء، بينما الجزاء الأخروي باق مستقر أبدي لا آخر له، وإذا قيست الدنيا بالآخرة ظهرت ضآلة ما فيها من لذة وألم. وهما كذلك –عند من صدق بموعود الله– لا يقارنان قيمة بالمتعة الدنيوية؛ فنعيم الجنة عظيم لا تتصوره العقول بتمامه إنما تتصور قريبًا منه، وكذلك عذاب الجحيم، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

---

[1] محاسبة النفس (ص ٢٥).

﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

فكيف يرضى الإنسان أن يبادل ساعة من لذات الدنيا الزائلة بنعيم الآخرة الدائم العظيم؟ هذا الموقف يبين غياب العقل عن قيادة النفس، إذ تنسحب القوة العاقلة من ساحة الحكم، تاركة الشهوة والهوى تصطرعان بلا حكم؛ فتسود الرغبات العابرة وتغيب البصيرة الضابطة. في هذه الحال، تصير النفس أسيرة للملذات المؤقتة، عاجزة عن درك الخير الحقيقي أو تجنب الشر، مهما كانت العواقب. وقد أكد القرآن هذا الانحراف، موضحًا كيف يظل كثير من الناس عاجزين عن سماع الحق أو استيعابه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، فهم منحوا القدرة على التمييز فأهملوها، فكان ضلالهم أعظم وأبعد أثرًا.

والثاني: أن الجزاء في الدنيا متحقق قبل الآخرة، وما جزاء الآخرة إلا كشف عن جزاء الدنيا، ذلك أن المتعبد لا بد تصيبه نفحة من نفحات الجنة حال تعبده، ثم إنه كلما ارتقى في تعبده زادت نفحات الجنة حتى يصل إلى رتبة الولاية التي هي جنة الدنيا، وقد نفى الله ﷻ الخوف والحزن عن أهل الولاية ووعدهم بالبشرى في الحياة الدنيا قبل الآخرة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

أخرج الإمام السيوطي في «الجامع الكبير» عن الحسن قال: «رأيت عثمان على المنبر قال: أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، مَا عَمِلَ أَحَدٌ عَمَلًا قَطُّ سِرًّا إِلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهُ عَلَانِيَةً، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ»**، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَرِيَاشًا**﴾، ولم يقل: ﴿وَرِيشًا﴾، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قال: «السمت الحسن»[1]. وروى الخطيب في «الزهد والرقائق» أثرًا عن إبراهيم بن أدهم بوب له بقوله: «قول إبراهيم بن أدهم في فضل العباد، وما هم فيه من لذيذ العيش»، قال: عن إبراهيم بن بشار، قال: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم، وأبو يوسف الغسولي، وأبو عبد الله السنجاري نريد، فمررنا بنهر يقال له: نهر الأردن، فقعدنا نستريح، وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات، فألقاها بين أيدينا فأكلناها وحمدنا الله تعالى، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء إلى ركبته، فقال بكفيه في الماء فملأها، ثم قال: «بسم الله»، وشرب الماء، ثم قال: «الحمد لله»، ثم ملأ كفيه من الماء، وقال: «بسم الله»، وشرب، ثم قال: «الحمد لله»، ثم

---

[1] الجامع الكبير (٣٢١).

إنه خرج من النهر فمد رجليه، ثم قال: «يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيامَ الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب»، فقلت: «يا أبا إسحاق، طلب القوم الراحة والنعيم، فأخطؤوا الطريق المستقيم»، فتبسم، ثم قال: «من أين لك هذا الكلام؟»[1].

فإذا قذف النور في القلب اتسع وانشرح، وخرج من ضيق التعلق بالدنيا إلى سعة التطلع للآخرة، وتظهر آثار ذلك في ميل صادق إلى الإخلاص والتعبد، والزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الفانية؛ فهذا النور ثمرة تعلق القلب بالرب ﷻ، لمعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومثل ذلك العاصي تصيبه زفرة من زفرات جهنم ولا يزال يهوي في المعاصي حتى يعيش جحيم الدنيا ثم ينتقل معها إلى الآخرة فتكشف له بتمامها، وقد نص سبحانه على معيشة السوء التي يهوي بها العاصي المعرض عن ذكر الله بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه ١٢٤-١٢٧]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف ٣٦].

---

[1] (ص ١٣٣).

قال العلامة المحقق: «وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله، واشتغل بغيره. بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره، ومحبته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والإنس بقربه. ومَن فقد هذه الحياة فقد فقدَ الخير كله، ولو تعوض عنها بما تعوض. فما في الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة! فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة. وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومَن لا وجود له ولا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض مَن لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض؟»[1].

وتوعد الله صنفًا من العاصين بالخزي في الدنيا لهذه المعصية بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة ١١٤]، وقال: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود ٦٠]، وقال: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود ٩٩].

---

[1] الداء والدواء (ص ٢٠١).

وهذا الضيق والوحشة هو بعينه «معيشة الضنك» التي يحياها من أعرض عن ذكر ربه، جاحدًا بآياته، مسرفًا في هوى نفسه، حتى ليكاد يحيا في الدنيا جحيمًا مصغرًا، تذوق روحه من عذاب الآخرة زفرات تسبق النار الكبرى، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه ١٢٧].

وجمع الله سبحانه بين الأمرين في آية، إذ جعل الامتثال لما أمر به في وحيه فاتحا أبواب الرزق، وأن مَن أعرض عنه محروم من هذا الرزق، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة ٦٦].

وهذا استدراك متكرر لازم لتصحيح وهم تسرب إلى أكثر العقول؛ فتوهموا أن التقوى وخشية الله لا تظهر ثمراتهما إلا في الحياة الآخرة، وأن الدنيا مرحلة يتساوى فيها البر والفاجر في العيش والرزق. وهذا فهم قاصر يناقض الحق لكون ثمرة التقوى غير محصورة في الجزاء الأخروي، بل المتقرر أن آثارها تعم الدارين، وأن حال المتقين مباين لحال الفجار في المنزلة والمآل، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿أَمَّنْ

هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

غير أن هذه الحياة الطيبة وهذا النور لا ينالهما إلا قلب صاف من أغشية الغفلة؛ فإن قلوب الخلق في الدنيا قد علتها أغطية من الذهول والنسيان؛ فحجبتها عن إدراك الحقائق على وجهها. وستنزع هذه الأغطية يوم القيامة؛ فينكشف المستور، وتنجلي الحقائق كما تنجلي للعين والقلب عند زوال غطاء النوم وحصول اليقظة. فحينئذ يتبين لكل نفس ما قدمت وأخرت، ويزول لبس الغفلة، ويظهر النور الذي كان محجوبا عن القلوب، قال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢].

قال العلامة المحقق: «فإنه لا نعيم له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه؛ فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة؛ فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة». وقال بعض العارفين: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب». وقال بعض المحبين: «مساكين أهل الدنيا! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها». قالوا: «وما أطيب ما فيها؟»

قال: «محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه». أو نحو هذا من الكلام. وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقًا»[1].

وقال: «والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب، يكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى آلته، كما قال النبي ﷺ: «**حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»[2]. وللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال، فيباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته»[3].

صحبة المتعبدين

ولما كان للسلوك إلى الله وحشة وغرابة، حسن بالمريد التنقيب عن إخوان له يسلكون نفس الطريق، فيتدارسون الإيمان بينهم، ويتنافسون في السعي إلى طاعة الله ومرضاته كما يتكالب الناس على جمع الأموال وكنزها، والعلو في مناصب الجاه وزخرفها، قال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]. ومن مظاهر مجتمع النبوة وجود المجتمعين على ذكر الله والسلوك إليه كما روى الإمام ابن أبي شيبة في «المصنف»

---

[1] مدارج السالكين (٢/٨٨).

[2] البخاري (٥٣١٧)، مسلم (١٤٣٣).

[3] مدارج السالكين (٣/٤٨٦).

عن الأسود بن هلال المحاربي، قال: قال لي معاذ: «**اجلس بنا نؤمن ساعة**»[1]، يعني: نذكر الله.

ومن ليس له في مسلكه رفيق، ولا في سعيه صديق؛ فلا يترك الطريق لوحشته، ولا ينقطع عن التعبد لغربته، بل يقتدي بالأئمة الأعلام، الهداة المهديين الذين سبقوه في هذا الدرب، وليدع الله برفاق صالحين يعينونه على السعي.

قال العلامة المحقق: «ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريد لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية العزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين». وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق،

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة (٣١٠٠٢).

واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك أو عاقوك»[1].

وهذا تمام الكلام في المقدمات، ولنشرع في المطلوب.

---

[1] مدارج السالكين (١/٣٣).

الفصل الأول

الفاتحة

يبدأ السالك أولَ طريق التعبد بالاستيقاظ قبل الفجر بمدة يسيرة، يستعين فيها بالله ثم يبدأ مشواره اليومي في معركته مع الشيطان والقوى المتصارعة، وإن كان مستحضرًا معركتَه مع الشيطان فمعلوم له أن أول ما ينبغي فعله عند الانتباه من النوم: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حتى يجند الله جيشَه ليكونوا معه أمام جحافل الوساوس الشيطانية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ثم يستغفر الله لما طرأ في باله من ترك الانتباه والرجوع للنوم، ومما فعله وسيفعله من معاص ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النساء: ١٠٦]. وينبغي أن يلازم الاستغفار خاصة في هذا الوقت من اليوم لأنها مما مدح الله به عبادَه بقوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات: ١٨]، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧]، وهي جالبةٌ الرزق فاتحةٌ أبوابَ الخير مُقوّيةٌ النفسَ والبدنَ على طاعة الله والسعي في الرزق، وأهم الأوقات تطلُّبًا للرزق هي هذه الأوقات لكونها أول الأمر وبابَه الذي يأتي ما بعدَه على صورته، قال سبحانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: ٥٢]، وقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ

ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح ١٠-١٢].

أعوان المنطلق

ومما يعينه على بدء هذا المسير –غير إعداد الزاد في اليوم السابق الذي سنذكره في فصل مستقل– أن يضع منبهًا بعيدًا عنه بحيث إن أفاق.. كان لزامًا عليه النهوض من فراشه لإغلاقه، فإن نهض ووصل إليه، أقبل مسرعًا إلى مغتسله من غير تفكير وتأمل؛ فغسل وجهه حتى يذهب عنه بقايا النعاس، ثم توضأ وضوءا كاملًا للصلاة، يتم أركانه وسننه، لما روى الشيخان عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَعْقِدُ الشَّيْطانُ على قافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذا هو نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فارْقُدْ فَإنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ**»[1].

قال العلامة ابن القيم: «في السنن من حديث أبي سعيد يرفعه: «**إذَا أصبَحَ ابنُ آدَمَ فإنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّها تُكفِّرُ اللِّسَانَ، وتقولُ: اتَّقِ اللهَ، فَإنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فإنِ استَقَمتَ استَقَمْنا، وَإنِ اعوَجَجتَ اعوَجَجْنا**». قوله: «**تُكَفِّرُ اللِّسَانَ**»، قيل معناه: تخضع له. وفي الحديث أن الصحابة لما دخلوا على النجاشي؛ لم

---

[1] البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

يكفروا له؛ أي: لم يسجدوا ولم يخضعوا، ولذلك قال له عمرو بن العاص، أيها الملك! إنهم لا يكفرون لك. وإنما خضعت للسان؛ لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء. وقولها: «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ**»؛ أي: نجاتنا بك وهلاكنا بك، ولهذا قال: «**فإنِ استَقَمتَ استَقَمْنا، وَإنِ اعوَجَجتَ اعوَجَجْنا**»»[1].

الصلاة والذكر

يبدأ بغسل كفيه ثلاثا قبل الوضوء لما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا. فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ**»[2]، ثم يشرع في وضوئه مسبغًا غير مسرف، مرتبًا متواليًا، لما روى الشيخان عن حمران مولى عثمان بن عفان، أنه رأى عثمان دعا بوضوء، فأفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات، ثم أدخل يمينه في الوضوء، ثم تمضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثا، ويديه إلى المرفقين ثلاثا، ثم مسح برأسه، ثم غسل كل رجل ثلاثا، ثم قال: رأيت النبي ﷺ يتوضأ نحو وضوئي هذا، وقال: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا. ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[3]. ثم إذا انتهى رفع بصره إلى السماء وقال ما ورد، لما روى الترمذي في جامعه عن عمر

---

[1] الفوائد (ص ٨١).

[2] مسلم (٢٧٨).

[3] مسلم (٢٢٦).

بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»[1].

ثم يفتتح يومه بصلاة الوتر والدعاء فيها بالهداية والرشاد والتوفيق والإعانة، وأدنى المجزئ ركعة واحدة، وأدنى الكمال ثلاث ركعات بسلامين، وأعلاها إحدى عشر ركعة يسلِّم في نهاية العاشرة ثم يركع ركعة يدعو بها. روى أبو داود عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْوِتْرُ حَقٌّ، فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا، الْوِتْرُ حَقٌّ، فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا، الْوِتْرُ حَقٌّ، فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا**»[2]، وروى الأربعة غير ابن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْوِتْرُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوتِرَ بِخَمْسٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوتِرَ بِثَلَاثٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوتِرَ بِوَاحِدَةٍ فَلْيَفْعَلْ**»[3].

ويتم العبد دعاءه وذكره حتى ينادي مؤذن الفجر، مستحضرًا في تلك الخلوات الفكرية أن الإنسان لا بد أن يذكر الله في كل حال، ذكرًا في القلب واللسان،

---

[1] الترمذي (٥٥).

[2] أبو داود (١٤١٩).

[3] أبو داود (١٤٢٢).

وأنه متى ما غفل عن ذكر الله ذكر غيره، ومتى ما شرع في ذكر غيره فتح لنفسه بابًا من أبواب الضلال؛ إذ النفس الإنسانية أبدًا متعلقة بشيء، فإن شغلها الإنسان عن الله تعلقت بما شغلها به، وإن شغلها بالله ازداد حبًّا لله وازداد الله حبًّا له. وكل عمل يفعله الإنسان من مباحات الدنيا إن استحضر به نية التقرب إلى الله كان ذاكرًا لله، ويرتفع ذكره كلما استحضر نيات تقربه إلى الله. بذلك يظهر الفرق بين السالك والساهي؛ فالسالك لا يتحرك ولا يسكن إلا بنية من الله حتى تنقلب حياته كلها عبادة لله، والساهي حتى في صلاته لاه في أمور دنياه ليس له منها إلا كلفة الجسد وامتلاء الوقت.

وهناك يستعد لمعركة اليوم قبل وقوعها؛ فيستحضر أعمال يومه مع مزالق الشيطان التي قد تترصده، حتى إذا أتته وهو في خضم العمل، كان قد أعد لها عدته؛ فينظر مستنفرًا ببصيرته من بداية يومه، ويجرد فكرته في رسم خطة محكمة في ذهنه لكيفية تنفيذ مهام يومه، لا يغفل عن توقع ما قد يعرض له من الموانع والصوارف التي تشغله عن أدائها، ثم يتأمل في طرق تلافيها وإبطال كيدها.

وفي كل مهمة صالحة تخطر له، يدعو الله أن يوفقه لإتمامها على الوجه الذي يرضيه. وفي كل عقبة أو مانع يتوقعه، يتضرع إلى الله أن يصرفه عنه ويدفع شره. فإن جواذب الدنيا وشواغلها لا بد واصلة إلى النفوس، والعاقل مَن خبرها فأخذ منها حذره، فإذا ما خلا إليها فيما بعد لم تضره لتهيئه لها، وإعداده العدة

واستعداده لملاقاتها، روى أبو نعيم في «الحلية» عن سفيان الثوري: «ومفتاح التوفيق: الدعاء، والتضرع، والاستكانة، والندامة على ما فرطت»[1].

صيام النوافل

وإن أراد الخير فله نية صيام هذا اليوم، وذلك أن بعض الناس يفتح الله عليهم في عبادة الصيام لسهولتها عليهم، فينبغي استغلال هذا الباب من أبواب الجنة بصيام السنن المأمور بها، كصيام الاثنين والخميس، لما روى أبو داود عن أسامة بن زيد قال: إن نبي الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس، وسئل عن ذلك، فقال: «**إِنَّ أَعْمالَ العِبادِ تُعرَضُ يَوْمَ الاثْنَينِ ويَوْمَ الخَميسِ**». وصيام ثلاثة أيام من كل شهر لما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي نوفل بن أبي عقرب، يقول: سأل أبي رسول الله ﷺ عن الصوم، فقال: «**صُمْ يَوْمًا مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»، فقال: يا رسول الله، بأبي وأمي، زدني، قال: يقول رسول الله ﷺ: «**زِدْنِي، زِدْنِي صُمْ يَوْمَيْنِ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»، فقال: يا رسول الله، بأبي وأمي، زدني، فإني أجدني قويًّا، قال: يقول رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَجِدُنِي قَوِيًّا، إِنِّي أَجِدُنِي قَوِيًّا، إِنِّي أَجِدُنِي قَوِيًّا**»، قال: فألحَمَ، أي: أمسَكَ، حتى ظننت أنه لن يزيدني، قال: ثم قال: «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»[2]. وأكملُ الصيام ما رواه الإمام النسائي

---

[1] حلية الأولياء (٦/٣٩١).

[2] أحمد (٢٠٦٦٣).

عن أبي قتادة قال: قال عمر: يا رسول الله، كيف بمن يصوم الدهر كله؟ قال: «**لَا صَامَ، وَلَا أَفْطَرَ**، أو قال: **لَمْ يَصُمْ، وَلَمْ يُفْطِرْ**». قال: يا رسول الله، كيف بمن يصوم يومين ويفطر يومًا؟ قال: «**وَيُطِيقُ ذَلِكَ أَحَدٌ؟**» قال: فكيف بمن يصوم يومًا ويفطر يومًا؟ قال: «**ذَاكَ صَوْمُ دَاوُدَ** عليه السلام». قال: فكيف بمن يصوم يومًا ويفطر يومين؟ قال: «**وَدِدْتُ أَنِّي طُوِّقْتُ ذَلِكَ**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، فَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ**»[1].

عندها يفرغ وقتًا لسحوره، فهو عبادة بذاتها وهو كذلك معين على طاعة الصيام، روى الإمام النسائي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»[2]، وروى ابن أبي الدنيا في «فضائل رمضان» عن أبي سعيد الإسكندراني قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْجَمَاعَةُ بَرَكَةٌ، وَالثَّرِيدُ بَرَكَةٌ، وَالسُّحُورُ بَرَكَةٌ، تَسَحَّرُوا فَإِنَّهُ يَزِيدُ فِي الْقُوَّةِ، تَسَحَّرُوا وَلَوْ عَلَى جَرْعٍ مِنْ مَاءٍ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**»[3].

---

[1] مسلم (١١٦٢).

[2] البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

[3] فضائل رمضان (٦٢).

الورد الصباحي إلى الضحى

ثم يصلي ركعتين خفيفتين بعد أذان الفجر سنة راتبة هي أعظم سنن الرواتب وأهمها، ولم يكن رسول الله ﷺ يتركها في حضر ولا سفر، روى مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيها**»[1]، وعن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾». وبعدها ينطلق ماشيًا إلى المسجد ذاكرًا الله أثناء مسيره، لما روى أبو داود عن بريدة، عن النبي ﷺ، قال: «**بَشِّرِ المَشَّائِين فِي الظُّلَمِ إلى المَساجِدِ بالنُّورِ التّامِّ يَومَ القِيامةِ**»[2].

ثم يصلي الفجر جماعة، ويبدأ بورده من القرآن تلاوة أو مراجعة أو حفظًا، فإن انتهى منها أكمل يذكر الله إلى طلوع الشمس؛ ولا يغفل عن الأذكار الواردة في الصباح. ومما ينبغي أن ينتبه له أن الأذكار الواردة لا تقال كلها سردًا كحافظ يريد إلقاء محفوظه، ولم يكن هذا عهد رسول الله ﷺ ولا أصحابه، إنما ينتقي أذكارًا يقولها في يومه مستحضرًا معانيها وأثرها في قلبه، وينوع بين ما ورد في كل يوم، حتى يمر على عامة الأذكار الواردة مع فهم واستحضار.

---

[1] الترمذي (٢٢٣).

[2] مسلم (٧٢٥).

ثم قام يصلي ركعتين بعد تمام الشروق، لما روى الإمام الترمذي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الفَجرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأجْرِ حُجَّةٍ وَعُمْرَةٍ**»[1]، وهذه الصلاة هي صلاة الضحى التي وردت في فضلها آثار كثيرة، منها ما روى أبو داود في السنن عن أبي هريرة قال: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ فِي سَفَرٍ، وَلَا حَضَرٍ: رَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَصَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ، وَأَنْ لَا أَنَامَ إِلَّا عَلَى وِتْرٍ**»[2].

ولو رافق هذا الورد والذكر مشي للتقوي على طاعة الله والإعداد لكان خيرًا، ذلك أن المشي من الرياضات المهمة لجسد المرء، وهي مما يزيد نشاطه في أول اليوم ويقوي لياقته وتحمله، لذا هي من إعداد القوة المطلوبة من كل مؤمن، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[3].

---

[1] الترمذي (٥٨٦).

[2] أبو داود (١٤٣٢).

[3] مسلم (٢٦٦٤).

فإن بقي بعد ذلك وقت فراغ لدوامه؛ فليملأه بالقراءة والاطلاع على المعارف والعلوم التي تفيده في دنياه وآخرته، ولو كان الوقت دقائق أو يزيد قليلًا، كأن يخصص كتابًا لهذه الفترة من اليوم، أو يبدأه بمحاضرة تأصيلية في علم من العلوم الذي يريد التمكن فيه. وعلى كل حال فينبغي أن يملأ هذا الفراغ، والاطلاع على المعارف والعلوم من مهمات الشرع والواقع، روى الشيخان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**، أَوْ: **حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»[1]. وقال حجة الإسلام: «فإن جربت نفسك مدة في الأوراد والعبارات، فكانت لا تستثقلها كسلًا عنها، لكن ظهرت رغبتك في تحصيل العلم النافع، ولم ترد به إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة، فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت النية؛ ولكن الشأن في صحة النية، فإن لم تصح النية؛ فهو معدن غرور الجهال، ومزلة أقدام الرجال»[2].

وليست همم طالبي العلم درجة واحدة، ولا يستوي مَن طلبه ليكون عبدًا لله ورسولًا عن شريعته، مع مَن اتخذه ترفًا فكريًّا أو سلّمًا للمنازل الخادعة من زخارف

---

[1] البخاري (٧٣٠٨).

[2] بداية الهداية (ص ١١١).

الدنيا. فأسمى الغايات وأرفع المقاصد همة من جعل العلم وسيلته إلى العمل، وجسره للتقرب من الله، وآلة لإنقاذ الخلق من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان؛ فقصده الفهم عن الله ورسوله، والنفاذ إلى مقاصد الشريعة وحدودها، وربط نصوص الوحي بواقع الناس؛ فيدل الحيران، ويقوم المعوج، ويضع الحق في نصابه في زمان مزقت فيه الشبهات الحقائق. وهذا هو العلم النافع الذي يزكي القلوب، ويهذب النفوس، ويغرس في صاحبه خشية تحمله على العبادة، وبصيرة تجعله عاملا لمصلحة دينه وأمته، لا منعزلا عنها ولا غافلا عن آلامها.

وأما انحطاط الهمة فأن تنتكس النية وتنقلب الغاية، فيصير العلم مجرد تكديس للمعلومات، أو ولعًا بتتبع شوارد أقوال قوم انقطعت صلتهم بنور الوحي، فيعجب بكتابات مصقولة العبارة خاوية الجوهر، أو يظن أن الوعي في استيراد أفكار وافدة، وأن التميز في التلفظ بمنازعات كلامية لا تزيد القلب إلا غفلة، ولا الواقع إلا تمزقًا؛ فينشغل بتجميعه المقولات الفلسفية، وملاحقة الاختلافات المعرفية، والافتتان بالألفاظ الأعجمية، بلا ميزان يميز الحق من الباطل، ولا قصد يصل العلم بالعبادة والعمل. ومثل هذا الطلب قل أن ترى له أثرًا في السلوك أو نورًا في القلب، بل قد تنقلب عليه الموازين، فيحسب الهداية جمودًا، والتعلق بالوحي قصورًا، والانحراف عنه فهمًا، وهو في الحقيقة حرمان من حقيقة العلم الذي أنزل ليقود إلى الله، لا ليصد عنه، قال الإمام الماوردي: «وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة، وأولى بالتقدمة استثقالًا لما

تضمنه الدين من التكليف، واسترذالًا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف. والكلام مع مثل هذا في أصل، لا يتسع له هذا الفصل. ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته، وصحت رويته؛ لأن العقل يمنع من أن يكون الإنسان هملًا أو سدى. يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع، ويفضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع. فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه. ثم العقل موجب له أو مانع ولو تصور هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في العقل، وأن العقل في الدين أصل، لقصر عن التقصير، وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضل وأضل»[1].

أوقات الفراغ

والمؤمن الحق لا ينبغي أن يكون في أوقاته فراغ لا معنى له ولا عبادة؛ ذلك أن الوقت هو رأس ماله الأسمى، ومن أنفق ساعاته في غير ما خلق له فقد خسر الصفقة الأعظم؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «**نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ**»[2]. فكيف يغبن المرء وهو في صحة بدنه وسعة وقته، وهو أغلى ما يملك من زاد إلى الآخرة؟

---

[1] أدب الدنيا والدين (ص ٧٦).

[2] البخاري (٦٤١٢).

ومَن تأمل في حقيقة الوقت الذي بين يديه أدرك أنه رأس ماله الأشرف، فمن أفنى رأس المال ضاعت عليه التجارة بلا ربح! قال العلامة المحقق: «إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها»[1].

والحق أن أنفس ما يربحه العاقل في دنياه أن يلزم نفسه في كل لحظة بما هو أولى بها وأصلح لمعادها، فلا يدع ساعة تمر إلا وقد زاد فيها رصيده الأخروي علمًا أو عملًا أو ذكرًا أو دعوة أو صلة. فإن اللحظة التي تنقضي من العمر بلا ثمرة عبادية لحظة ميتة في الصحف، مقيدة في ديوان الخاسرين. روى أبو نعيم في «الحلية» عن أبي بكر بن عياش قال: «إن أحدهم لو سقط منه درهم؛ لظل يومه يقول: إنا لله، ذهب درهمي! ولا يقول: ذهب يومي، ما عملت فيه!»[2].

وقال حجة الإسلام: «ولا ينبغي أن تكون أوقاتك مهملة، فتشتغل في كل وقت بما اتفق كيف اتفق، بل ينبغي أن تحاسب نفسك، وترتب وظائفك في ليلك ونهارك، وتعين لكل وقت شغلًا لا تتعداه، ولا تؤثر فيه سواه، فبذلك تظهر بركة الأوقات. فأما مَن ترك نفسه سدى مهملًا إهمال البهائم لا يدري بما يستقبل في كل وقت فتنقضي أكثر أوقاته ضائعة»[3].

---

[1] الفوائد (ص ٤٤).

[2] حلية الأولياء (٣٠٣/٨).

[3] بداية الهداية (ص ١٢٠).

التنظف والتطيب ثم الانطلاق

وفي نهاية هذه الفترة من فترات اليوم يتنظف ويتطيب مستحضرًا النية الصالحة في ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وروى الإمام أحمد في «المسند» عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «**حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»[1]. ثم ينطلق إلى عمله كذلك مستحضرًا نيات صالحة لا لزخارف الدنيا فقط، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُوَ** -أَحْسِبُهُ قالَ: **إلَى الجَبَلِ- فَيَحْتَطِبَ، فَيَبِيعَ، فَيَأْكُلَ ويَتَصَدَّقَ، خَيْرٌ له مِن أَنْ يَسْأَلَ النّاسَ**»[2].

---

[1] أحمد (١٣٠٧٩).

[2] البخاري (١٤٨٠)، ومسلم (١٠٤٢).

الفصل الثاني

المجاهدة

وهي مرحلة الحرب الدائمة وموطن الامتحان الأشد، إذ تشتد فيها هجمة النفس الأمارة، ويرمي الشيطان كل حيله الكبرى ليوقع بابن آدم. فإن الانخراط في معمعات الحياة ومرافقة الناس في مطالبهم، وكثرة المخالطة في طلب المعاش.. تضع القلب في محك الاختبار الممحِّص. وقد يحسب المرء أنه يخرج من بيته ومعه زاده الإيماني وعهده مع ربه؛ فيرجع وقد تبدد ذلك كله أو ضاع أغلبه، يخرج ليقضي حاجة؛ فيرجع ولم يحصل منها على شيء، بل ربما اقترف ما يسخط به ربه وهو لا يدري.

وتلك المخالطة تولد آفات قلبية كالكبر الذي يهدم التواضع، والحسد الذي يحرق الحسنات، والبغضاء التي تمزق روابط الأخوة. كما تنتج عنها آفات عملية ماحقة، كالوقوع في فتنة النظر المحرم، والانزلاق إلى الغيبة والنميمة التي تهدم في لحظات ما بني في أعوام. لذلك؛ فإن الراحة النفسية والسلامة الباطنة والظاهرة تكمن في التحرر من أسر هذه المؤثرات الفاسدة، واجتناب مهالك الصحبة الفارغة.

ويشتد الأمر في هذا الزمان حيث اختلط الحلال بالحرام واشتبهت السبل، فأصبح السعي في طلب الرزق ذا أخطار جسيمة، ينسي صاحبه حقيقة مسيره

إلى الله، ويصرفه عن أوجاع إخوانه المسلمين وواجب نصرتهم. والميل إلى المال والركون إلى الدنيا يذهبان بلب الإنسان ويطمسان على قلبه، فيغدو المرء كمن يركض خلف السراب. فليس للمؤمن من خلاص في هذا الميدان إلا بالمرابطة المستمرة واليقظة الدائمة، وأن يحذر كل الحذر أن يخرج من بيته بدينه ثم يعود وقد خسره أو نقص منه، فإن ذلك هو الخسران المبين الذي لا خسارة بعده، يقول الإمام ابن الجوزي: «والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها: فمخالطة الناس، ورؤية المستحسنات، والتعرض بالملذوذات، يقوي حوادث الحس. والعزلة والفكر، والنظر في العلم، يقوي حوادث الآخرة. ويبين هذا: بأن الإنسان إذا خرج يمشي في الأسواق، ويبصر زينة الدنيا، ثم دخل إلى المقابر، فتفكر، ورق قلبه، فإنه يحس بين الحالتين فرقًا بيّنًا، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث. فعليك بالعزلة، والذكر، والنظر في العلم، فإن العزلة حمية، والفكر والعلم أدوية، والدواء مع التخليط لا ينفع، وقد تمكنت منك أخلاط! المخالطة للخلق والتخليط في الأفعال، فليس لك دواء إلا ما وصفت لك. فأما إذا خالطت الخلق، وتعرضت للشهوات، ثم رمت صلاح القلب، رمت الممتنع»[1]. وقال العلامة المحقق: «فأما ما تؤثره كثرة الخلطة، فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًّا وغمًّا وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة

---

[1] صيد الخاطر (ص ٨٥).

قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسيم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟ هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد»[1].

الجهاد الأكبر

والخلطة بالناس والمال تبلغ أعلاها في هذا الوقت من اليوم؛ فالإنسان السالك إلى الله لا بد أن يكون مجاهدًا جهاده الأكبر في هذه الأوقات حتى يخرج منها بأقل الخسائر في قلبه وإيمانه. ولا يأنفن مؤمن من إطلاق الجهاد الأكبر على النفس، فإنه صحيح معنى وإن لم يصح مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ، فحرب الإنسان مع وساوس الشياطين وضلالات النفس أشد من حربه مع المشركين؛ ذلك أن الجهاد الذي هو قتال الكفار إن كان على حقيقته الشرعية المقبولة ما هو إلا ثمرة من ثمار فلاح المؤمن في جهاده الأكبر، فلو لم يظفر الإنسان في معركته النفسية لما رضخت نفسه واستقامت في الجهاد. لذا؛ كان جهاد المجاهدين

---

[1] مدارج السالكين (٢/٨٩).

الصادقين علامة على نقاء نفوسهم وبلوغهم المراتب العليا في إصلاح النفوس وتزكيتها.

وقد اختبر الله سبحانه الصحابة بالجهاد، فأراد كشف صدق نفوسهم بخضوعهم للجهاد وصبرهم على بلاءاته، مما يدل على أن الأصل هو جهاد النفس، وأن خوض القتال هو أنضج ثمار النصر في جهاد النفس، قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وروى الخطيب في «تاريخ بغداد» عن جابر قال: قدم النبي ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله ﷺ: «**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وقَدِمْتُمْ من الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ**»، قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: «**مُجاهَدةِ العَبدِ هَواه**»[1].

فالسلوك إلى الله «جهاد»، بل هو رأسه وأساسه، وإذا نظر المتفكر في حال المجاهدين وأوجاعهم والفتن التي تحيط به علم معنى كون تزكية النفس جهادًا؛ فالسير في طريق التعبد فيه كلفة ومشقة كالهجرة والجهاد، وفيه استغناء عن كثير من ملاذ الدنيا التي يتمتع بها الغافلون دون المجاهدين. لكنها مع ذلك فيها الظفر

---

[1] تاريخ بغداد (١٣/٥٢٣).

المحقق، والهداية الربانية التي يفتح الله بها على المجاهدين؛ كما قال الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

لذلك؛ على السالك طريق الاستقامة أن يتعامل مع هذا السبيل معاملة المجاهد مع الأخطار والأشرار، ويكون على حذر من الأعداء، مستعدًّا في نفسه مجهزًا ذخائره، راضيًا بقضاء الله، عالمًا مستيقنًا بنصر الله الذي وعده لعباده المجاهدين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَانَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف: ١٠-١٣].

وهذه المواطن يختبر فيها الإيمان الحق؛ فمن ثبت على الصواب وأحسن الجهاد تنزلت عليه رحمات الهداية، وبقدر ما ينهزم فيها يخفت نور قلبه، ويحجب عنه من الهداية بقدر إكدائه.

ولا يُنتظر تمكين في مواجهة المشركين، ولا نصر في حرب المرتدين، ولا علو في مدافعة الباغين، ممن هزموا في دواخلهم؛ إذ الغلبة في الخارج تابعة للغلبة في الداخل. ولا يتخلف هذا الأصل -تلازم النصر بين الظاهر والباطن- إلا بمانع من الموانع وضعه الله لحكمة عنده. ومع علمنا أنه قد يتخلف لا ينبغي أن «ننتظر» التمكين من غير الأصفياء؛ بل نتطلب صفاء المجاهدين ثم النصر من الله؛ لذا

فليبدأ المرء من أقرب الثغور: من قلبه أولًا، ومن إصلاح باطنه قبل ظاهره. فإن صلحت هذه الجبهة لانت له سائر الجبهات، وانفتح له باب التوفيق في شأنه كله، قال العلامة المحقق: «قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. علق سبحانه الهداية بالجهاد؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا؛ فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد، قال الجنيد: «والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص». ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا مَن جاهد هذه الأعداء باطنًا؛ فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومَن نصرت عليه نصر عليه عدوه»[1].

إتقان العمل

على السالك في هذه المرحلة السعي إلى إتقان ما ينشغل به إن كان عاملًا أو طالبًا حتى يكون كمال عمله صورة لكمال نفسه الداخلية في الإيمان والتعبد، لما روى الإمام أبو يعلى الموصلي في مسنده عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ**»[2].

---

[1] الفوائد (ص ٨٢).

[2] أبو يعلى الموصلي (٤٣٨٦).

والإتقان قسم من أقسام الصدق، ذلك أن الصادق لا يمكنه الغش في ما ينشغل به لأنه سيكذب على مَن فوقه ابتداء أو مآلًا، وسيكذب على نفسه بإقناعها أنه يؤدي ما عليه وهو دون ذلك، وسيكذب على مَن عقد معهم العهد منذ البدء أنه سيقوم بعمله على وجهه المطلوب، وإن كان طالبًا فهو كاذب على أهله موهم لهم أنه باذل وسعه، لذي وغيرها من الأسباب كان الإتقان علامة من علامات الصدق، لا ينتفي إلا بانتفائه، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، وإن لم يكن معنى الآية أولًا وبالذات ما قصدناه، لكنه يشمل هذا المعنى ثانيًا وبالتبع، لكون العمل إن كان حسنًا فالإحسان فيه مطلوب، ومحبة الله شاملة للمحسنين.

ولا يعمل إلا مستحضرًا النوايا الصالحة في العمل والإتقان، ذلك أن الله لا يجزي المؤمنين خيرًا بأعمالهم إلا ما كان منويًّا لله دون غيره، فإن لم يكن فيه نية وقصد فلا ثواب، لما روى الشيخان في الحديث المشهور عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «**الأعْمالُ بالنِّيَّةِ، ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى، فمَن كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ، ومَن كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصِيبُها أوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ**»[1].

وإن كان فيه نية لله ولغيره فلا يقبل الله من صاحبه عمله لإشراكه معه غيره،

---

[1] البخاري (٥٤)، مسلم (١٩٠٧).

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

السمعة الطيبة

وهو بذلك يكسب السمعة الطيبة المعينة على الدعوة ونشر حقيقة الإيمان والعمل الصالح، لما روى الإمام النسائي عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**الْمَلَائِكَةُ شُهَدَاءُ اللهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**»[2]، فالناس شهود الله في أرضه، وهم ينفعونه في حياته وبعد مماته بالدعاء والصدقة وإهداء الثواب، قال الإمام ابن الجوزي: «نظرت في الأدلة على الحق ﷻ، فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله ﷻ، فيظهره الله سبحانه عليه، ولو بعد حين، وينطق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس. وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق، فيكون جوابًا لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك ليعلم الناس أن هنالك مَن يجازي على الزلل، ولا ينفع من قدره

---

[1] مسلم (٢٩٨٥).

[2] النسائي (١٩٣٣).

وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل. وكذلك يخفي الإنسان الطاعة، فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنبًا، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن، ليعلم أن هنالك ربًّا لا يضيع عمل عامل. وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه أو تأباه، وتذمه أو تمدحه -وفق ما يتحقق بينه وبين الله تعالى- فإنه يكفيه كل هَمٍّ، ويدفع عنه كل شر، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق، دون الحق، إلا انعكس مقصوده، وعاد كل شر، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق، دون الحق، إلا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذامًّا»[1].

والكلام عن إهداء الثواب للمسلم الحي أو الميت يطول، خلاصة ذلك أن ما أهدي للمؤمن من ثواب عمل آخر ليس خارجًا عن عمله مطلقًا بل هو أثر من آثار عمله التي زرعت المحبة في قلوب الناس، فالرجل لا يهدي ثواب عمله إلا لمن كان محسنا إليه، ومن الثواب الذي أعده الله للمحسن هو ما يهديه المحسن إليهم، ومحبة المؤمنين لأولياء الله من آثار محبة الله لهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ ﷻ إذا أحَبَّ عَبْدًا نادى جِبْرِيلَ: إنَّ اللهَ قدْ أحَبَّ فُلانًا فأحِبَّهُ، فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي جِبْرِيلُ في**

---

[1] صيد الخاطر (ص ١٠٠).

السَّماءِ: إنَّ اللهَ قدْ أحَبَّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، ويُوضَعُ له القَبُولُ في أهْلِ الأرْضِ»[1].

وهذه المحبة التي يقذفها الله في قلوب الناس لعبده لا تخلو من ثمرة دنيوية حاصلة بحكم السنن الجارية، ولا يكلف المؤمن أن يتعالى عنها أو يتصنع إهمالها، غير أن الواجب أن تبقى منضبطة الوجهة، محروسة القصد؛ فلا تطلب لذاتها، ولا تتخذ غاية مستقلة، وإنما تجعل أداة في خدمة الحق وأداء الأمانة. فبقدر ما يتهيأ للعبد من قبول في القلوب تتيسر له سبل الدعوة، ويسهل عليه أن يصل الناس بالوحي، وأن يشدهم إلى الشريعة ومنهاج الجيل الأول، وأن يوقظ فيهم الإيمان الحي والروح المجاهدة، وأن يبيّن قضايا الأمة ويكشف مسالك الانحراف والإجرام.

وهذه المعاني هي التي ينبغي أن تتقدم في القصد عند تحصيل السمعة الطيبة؛ لا انتظار القبول، ولا تعليق العمل على استجابة الناس. فالمؤمن يؤدي ما عليه من الدعوة قيامًا بالواجب وليس تفضلًا على الله، ولا يساوم على نتيجة الدعوة ولا يترقب جزاءها الدنيوي، روى أبو نعيم في «الحلية» عن معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل»[2].

---

[1] البخاري (٧٤٨٥)، مسلم (٢٦٣٧).

[2] حلية الأولياء (٣٦١/٨).

اتقاء معاصي المخالطة

ومع هذا الانفتاح على الناس، وكثرة المخالطة والسعي، يبقى العبد على حذر دائم من آفات الطريق، مدركًا أن الفتنة لا تقتحم النفس دفعة واحدة، وإنما تتسرب من ثغور مهملة؛ تبدأ بخاطرة عابرة، حتى تنتهي عادة تستعصي على المفارقة، وبينهما مراحل لا بد للسالك من اجتنابها.

قال العلامة المحقق: «حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم»[1]، وقال: «دافع الخطرة؛ فإن لم تفعل صارت فكرة؛ فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل صارت شهوة؛ فحاربها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة؛ فإن لم تدافعها صارت فعلًا؛ فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها»[2].

لذا كان أول الجهاد دفع الخاطر قبل أن يستقر، وغض البصر قبل أن ينقش في القلب صورة تزاحم تعظيم الله فيه، فالقلب موضع العبودية، ولا يصلح أن يتكدس فيه ما يفسد إخلاصه أو يضعف انقياده. ولذلك يجاهد المؤمن نفسه

---

[1] طريق الهجرتين (١/٣٧٧).

[2] الفوائد (ص ٤٥).

على ضبط جوارحه، وحراسة نظره، وصيانة فرجه، ولا يفتح باب المخاطبة والاختلاط خاصة بالنساء إلا بقدر الضرورة وتحت سلطان الشرع، واثقًا أن سلامة الباطن إنما تحفظ بحراسة الظاهر، وأن من استهان بالمقدمات عجز عن دفع النتائج، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ٣٠﴾ [النور: ٣٠].

وإن كان السالك في مثل هذه البيئات امرأة، فإن حاجتها إلى هذا الباب آكد، لما ركب في طبيعتها، ولما يحيط بها من دواعي الفتنة وتكالب الأنظار؛ فتكون أولى الناس بحراسة نفسها، وأشدهم افتقارًا إلى اتقاء شرور الخلق وتقلبات النفس. وليس المقصود هنا تقرير الأحكام وبيان الضوابط، وإنما توجيه النظر إلى ما يعين القلب على احتمال البلاء، والثبات على الطريق، وصيانة الداخل قبل الظاهر.

فغض البصر، وحفظ الفرج، وستر الزينة، وضبط الحركات والسكنات، ليست مجرد أوامر شكلية، وإنما درع واق للقلب من التعلق والانكسار، وحراسة للروح من التشتت والاضطراب، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ

أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١]، قال حجة الإسلام: «ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن التفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع؛ فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها»[1].

معاصي الناس القولية

ويستعين على معاصي الناس القولية بطول الصمت والتحلم؛ فإن طول الصمت يبعد البطالين عنه؛ إذ لا يلقون منه مشاركة في الغش والكذب والغيبة والنميمة. فإذا ما أقبل إليه من لا يمكنه مفارقته بحكم الدوام المشترك، وجاء بجعبته من الآثام القولية؛ فليطل الصمت دون إبداء شعور ورغبة في معرفة المزيد، فإن الناس إن لم يجدوا تفاعلًا ممن يحادثونهم ملوا الحديث وتركوا الساكت لنفسه، روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت وآداب اللسان»: «عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١] قال: «اللمز: النميمة»، وعن الربيع بن صبيح، قال: سمعت الحسن رضي الله عنه يقول: «والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده». وعن خصاف، وخصيف، وعبد الكريم بن مالك، قالوا: «أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم، ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض

---

[1] بداية الهداية (ص ٢٠٣).

الناس». وعن مجاهد، عن ابن عباس ﷺ قال: «إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك». وعن حفص بن عثمان قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «لا تشغلوا أنفسكم بذكر الناس فإنه بلاء، وعليكم بذكر الله فإنه رحمة»»[1]. وقال حجة الإسلام: «فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليه إلا العزلة، أو ملازمة الصمت غلا بقدر الضرورة؛ فقر كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يضع حجرًا في فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد». فاحترز منه بجهدك؛ فإنه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة»[2].

وإن كان باستطاعة السالك النصح والإرشاد وبيان حرمة معاصي اللسان لكان الأولى والأوجب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: ١١-١٢]، روي عن الإمام السجاد: «ليس لك أن تقعد مع من شئت، لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ

---

[1] الصمت وآداب اللسان (ص ١٢٩-١٣١).

[2] بداية الهداية (ص ١٩٨).

فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وليس لك أن تتكلم بما شئت، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ولأن رسول الله ﷺ قال: «**رَحِمَ اللهُ عبدًا قال خيرًا فَغَنِمَ، أو سَكَتَ عن سُوءٍ فسَلِمَ**»[1]، وليس لك أن تسمع ما شئت، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾».

والحذر من اقتراف الآثام القولية أولى من الاحتراس عن الخلطة بأهلها، وإنما اعتمدت نصح السالك بالابتعاد عنهم لكوني مستبطنًا بعد السالك عن هذه الآفات، وإن كان في الحقيقة ليست بعيدة عن أحد. ومَن خالط أهل هذه الآفات عرف مصيبتها مما يدفعه إلى البعد عنها والثبات في اجتنابها، وهذا مما قرره حجة الإسلام في قوله: «وإذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك، فانظر إلى كذب غيرك، وعلى نفرة نفسك عنه، واستحقارك لصاحبه واستقباحك له. وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك؛ فإنك لا ترى قبح عيوبك من نفسك، بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة؛ فلا ترض لنفسك ذلك»[2].

---

[1] الجامع الصغير (١١١١).

[2] بداية الهداية (ص ١٨٣).

والحلم مطلوب في هذه المواطن حتى لا يعتدي على من اعتدى عليه، وإن كان لا بد من الاعتداء فبقدره ولا يزيد، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]؛ ذلك أن الخلطة بالناس لا بد أن تظهر جمعًا من البشر الذين لا تتقبلهم نفس السالك، بسبب عدم التناغم بين النفوس وإن كان الكل صالحًا، أو لكون الآخر فيه فساد وإزعاج واعتداء، روى الإمام ابن ماجه عن عائشة أم المؤمنين، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا الْبِرُّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً، الْبَغْيُ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ**»[1]، وروى الإمام البخاري عن عائشة قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[2].

ضعف السالك

والسالك لطول صمته وحسن لسانه وطيب معشره يظن به الضعف، لذا يحاول البطالون الاعتداء عليهم لكونهم الأضعف بين الحضور، وفي هذه الحالة

---

[1] ابن ماجه (٤٢١٢).

[2] البخاري (٣٣٣٦).

لا بد من الحزم في هذه المواقف، ولو لم يكن رد للاعتداء عملًا بالأخير الذي نص عليه سبحانه في كتابه، لكن لا بد من إعلام المعتدي أن المؤمن قادر على رد الاعتداء بمثله وأشد، وأنه ما ترفع إلا لأمر الله بذلك، واجتماع هذا الأسلوب مع الامتثال لأمر الله قاضيان باجتناب المعتدي السالك في قابل الأيام، وروي عن الإمام الصادق: «مَن لم تكن فيه ثلاثة خصال لم ينفعه الإيمان: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجز عن المحارم، وخلق يداري به الناس».

والبعد عن الفساق واجب كما تقرر، خاصة مَن كان فاسقًا قويًّا في فسقه، داعيًا إليه، مثبتًا أركانه. وما مر من إظهار قوة المؤمن معين على هذا الاجتناب، بل على كبح غلواء الفساق، قال الإمام أبو طالب المكي: «وإياك أن تصحب من الناس خمسة: المبتدع، والفاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإن هؤلاء مفسدة للقلوب مذهبة للأحوال، مضرة في الحال والمآل. وقد كان سفيان الثوري ﵀ يقول: «النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة»، وقال سعيد بن المسيب: «لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة»، ولكن قد كان صعصعة بن صوحان يقول: «إذا لقيت المؤمن فخالطه مخالطة، وإذا لقيت المنافق فخالفه مخالفة»»[1].

---

[1] قوت القلوب (٢/٣٩١).

مع ذا؛ فالحزم في البعد عن الفساق لا يعني انغلاق القلب أو انعزال السالك عن الناس جملة، بل من تمام الحكمة أن تكون له سياسة وسط في معاملتهم، تتراوح بين لطف المعاملة وحزم المباعدة؛ فالانغلاق على النفس قد يولد في القلوب حسدًا أشد، ويحفز على الأذى أكثر.

وأصل الحكمة أن يصنع في نفوسهم ما يرد به كيدهم، ويصرف شرهم، من غير أن يسلم لهم زمام قلبه أو ينقاد لهواهم؛ فبالحذر يحفظ نفسه، وباللطف يكسر حدة عدائهم، فيكون قريبًا من قلوب بعضهم، مهابًا في أعين جميعهم. لذا؛ فليكن بين السالك والفساق حجاب من الأدب والحذر، لا ستارًا من العداوة والقطيعة، والفرق بين الحزم والجفاء دقيق، ولكنه واضح لمن ألف الناس ووفقه الله لحسن الاختيار، قال حجة الإسلام: «وقال سفيان لأصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور من مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل»[1].

وقال العلامة المحقق: «والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعات، والأعياد والحج، وتعليم العلم، والجهاد والنصيحة. ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه

---

[1] الإحياء (٣/١٨٦).

اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلًا. وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله تعالى، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه. فإن عجزته المقادير عن ذلك، فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظان، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقي به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزاكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحا ذليلا. ولا يعين على هذا إلا المحبة الصادقة والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربعة

الباقية الآتي ذكرها، ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوية من الله، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله»[1].

كبر السالك وغروره

وطول الصمت واجتناب الخوض في حديث العامة دافع الناس إلى ظن الكبر من السالك؛ لذلك وجب إظهار التواضع والذلة للمؤمنين في مواطن الإيمان ويقابله الاستعلاء الإيماني في مواطن العصيان عند إنكار المنكر والغضب لله، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي شأن الغضب لله ما رواه الشيخان عن عائشة قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا؛ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا؛ كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ؛ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ

---

[1] مدارج السالكين (٢/٩١).

اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لله»[1]، وروي عن الإمام الصادق: «التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب والتواضع، أما يكون الله وفي الله وما سواه فكبر ومن تواضع الله شرفه الله على كثير من عباده ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين».

نظر المتعبد للعصاة

وعلى السالك استحضار مفهوم حب الطاعة من العاصي واجتناب تعييره بما هو عليه، فلا ينظر إليه نظر المستحقر الذي يرى نفسه خيرًا منه، أو أن الله لن يهديه ولن يغفر له، لما روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن جندب أن رسول الله ﷺ حدَّثَ «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ أَوْ كَمَا قَالَ**»[2].

قال العلامة المحقق: «ومن علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لا بد

---

[1] البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

[2] مسلم (٢٦٢١).

مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن لهم أرجى لرحمة الله منك لنفسك. قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الخلق في ذات الله، ثم تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقتًا»[1].

وإن تعيير العاصين بذنوبهم مآله عقاب من الله في الدنيا والآخرة، ذلك أن عقاب الدنيا البلاء بما ابتلي به العاصي أو أشد، ثم بلاء الآخرة بالحساب على التعيير نفسه ثم على المعصية الموروثة من التعيير، ومن ذا الذي يفضل التفكه بتعيير العاصين بعد علمه بعقابه! قال العلامة المحقق: «إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك هو الذي باء به. ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب، أنفع له وخير له من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله! فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، وأنين المذنبين أحب إليه من زجل المسبحين المدلين! ولعل الله أسقاه

---

[1] مدارج السالكين (٢/٦٣).

بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر»[1]. وقال الإمام ابن الجوزي: «ومما ينبغي للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء، فإن ابن سيرين قال: «عيرت رجلًا فقلت: يا مفلس! فأفلست بعد أربعين سنة». وقال ابن الجلاء: «رآني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمرد، فقال: ما هذا؟ لتجدنّ غبها، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة»»[2].

وبالضد من هذا، كل من عمل خيرًا، أو صحح نية، فلينتظر جزاءها الحسن، وإن امتدت المدة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال ﷺ: «**مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امرَأَةٍ، أَثَابَهُ اللهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**»[3]؛ فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابي.

آفات السعي في الرزق

وفي الهرب من آفات السعي في الرزق يحسن للسالك أن يكون دائم الاستحضار لمآسي المسلمين من الحروب والفقر؛ إذ الانغماس بالحياة الدنيا وزينتها، والاشتغال بجمع المال وكنزه، والنظر إلى الأهل والعيال ساعيًا إلى توفير كل ما يخطر في بالهم من ملاذ الدنيا. كل هذه المنعطفات الدنيوية تنسي المؤمن أنه مؤمن، وأنه في مجتمع مؤمن، وأنه من أمة مؤمنة، وأن عليه واجب الولاء لكل

---

[1] مدارج السالكين (١/٢٧٢).

[2] صيد الخاطر (ص ٦٨).

[3] المستدرك (٨١١٢).

مؤمن، وأنه فرض عليه نصرة كل مؤمن، قال تعالى في شأن العلاقة بين أهل الإيمان: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]، وقال سبحانه في شأن المقصرين في أداء حقوق أموالهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

لذلك لا يغفل السالك عن هذا المزلق من مزالق الشيطان، ويحسن أن يكون كثير الفكرة بمصائب المسلمين حتى تبقى أهدافه الأخروية بين عينيه ولا تطغى عليها شهوات الدنيا وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص ٧٧].

إدارة المال

ويسعى لأن يقتطع من ماله –ولو قل– ما يعين به المسلين المجاهدين والفقراء الصابرين؛ ذلك أن المجاهدين هم رأس الحربة وشوكة الأمة، ولا يمكن للإسلام أن

يرتفع إلا بالجهاد، ولا يمكن للجهاد أن يؤتي ثمره إلا بالإنفاق، فالمال عصب الجهاد، وليس للمجاهدين من مصادر الدخل إلا الأمة التي يدافعون عنها، فحق علينا نصرتهم، ثم الفقراء المعدمون المساكين الذين لا يملكون أقواتهم وأقوات عيالهم، وتكسرهم جوعتهم أمام الخلق، ففرض البحث عن أهل العفة من هؤلاء والسعي في أرزاقهم؛ لما روى الشيخان عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[1]، وروى الإمام الطبراني في «الأوسط» عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يُصْبِحْ وَيُمْسِ نَاصِحًا للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ ولِإِمَامِهِ ولِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**»[2].

ثم هو دائم التخطيط عند هذا الحال بالاستقلال المالي لإفساح وقت لعبادته والابتعاد عن المعاصي الناشئة من الخلطة؛ فالوظيفة المعتادة تأكل الوقت أكلًا حتى لا يجد السالك وقتًا للعلم والتعبد والنظر في أحوال المسلمين، فإن سعى إلى الاستقلال بمشروع يؤمن له ضروراته كان خيرًا له من هذا الباب حتى يجد لنفسه وقتًا يتعبد الله فيه بأنواع العبادات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح:

---

[1] البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

[2] المعجم الأوسط (٧٤٧٣).

٧-٨]، ثم هو خير له لاجتناب الخلطة بالناس إلا عند الضرورة المتحتمة، أما في حال الوظائف فإن الخلطة يومية ولمدد طويلة وهي خلطة بين ذكور وإناث كذلك، روى الإمام البخاري في صحيحه عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**». فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**»[1]، والله المستعان.

قال الإمام ابن الجوزي: «وإني تأملت على أكثر أهل الدين والعلم هذه الحال، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ذلوا، وهم أحق بالعز. وقد كانوا قديمًا يكفيهم بيت المال فضلات الإخوان، فلما عدمت في هذا الأوان، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيء من دينه، وليته قدر، فربما تلف الدين، ولم يحصل له شيء. فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم أو مداهنة جاهل، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة، الذين يدعون في الفقر ما يدعون، فما الفقر إلا مرض العجزة، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض، اللهم! إلا أن يكون جبانًا عن التصرف، مقتنعًا بالكفاف؛ فليس ذلك من مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد. وأما الكاسب ليكون المعطي لا المعطى، والمتصدق لا المتصدق

---

[1] البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

عليه، فهي من مراتب الشجعان الفضلاء، ومَن تأمل هذا، علم شرف الغنى، ومخاطرة الفقر»[1].

استحضار سؤال الوجود

وهو في حالة دائمة عامل لتحقيق مقصد وجوده في الحياة الدنيا وهو عبادة الله وتعبيد الناس لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، لذلك هو مكثر من ذكر الله في قلبه ولسانه مستحضرًا النية عند كل عمل، فلا يتسلم عملًا دنيويًّا إلا وجد له نية صالحة تقربه إلى الله، فنواها قبل الشروع، وساعيًا إلى دعوة القريبين منه حتى يدخلوا في سلك المتعبدين، فلا يهمل الدعوة بحجة الاهتمام بالنفس وبنائها أو اجتناب المجتمعات المستكبرة عن عبادة الله، ذلك أن الدعوة واجب فرضه الله عليه وليس شيئا يفعله وقتما عن له الأمر، فالدعوة قرينة العبادة، ذلك أن الله خلقنا للتعبد، ولا يحصل التعبد إلا بعبادة الفرد لله ثم دعوة غير العابدين للتعبد، روى الإمام أبو داود في السنن عن سهل -يعني ابن سعد- عن النبي ﷺ قال: «**واللهِ لأن يُهْدى بِهُداكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمرِ النَّعمِ**»[2].

---

[1] صيد الخاطر (ص ٦٥).

[2] أبو داود (٣٦٦١).

بعض آثار السمت الحسن

وتنشأ من هذه الصفات الحسنة عند انشغاله في عمله آثار، منها:

أولها: سمعة طيبة عند عامة مشاركيه في العمل مما يساعده في الدعوة إلى الله حالًا ومآلًا، كذلك يفتح له أبوابًا في الرزق الدنيوي الذي يستحضر فيه نية العبادة. وليكن المؤمن حريصًا على أن تسود الأمانة وسلامة الصدر ظاهره وباطنه، وأن يحرس قلبه وسلوكه من الانحدار إلى المكر والخديعة.

وثانيها: مدح الناس، وفي مدح الناس وذمهم حالات: مادح في السر والعلن، ومادح في السر ذام في العلن وعكسهما، وكذلك يوجد غيرها بأن يدخل عامل السكوت فتنشأ حالة الساكت في العلن والسر، والساكت في العلن المادح في السر وعكسهما، ويتفطن المؤمن للتعامل مع كل حالة بطريقتها وقدرها.

وهو أبدًا مستحضر أن المدح الحسن هو ثناء الله عليه. أما مديح البشر كهلم فلا يقدم له ولا يؤخر في أمور آخرته، وأن ملاك الانتصار على الشيطان، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة.. الإعراض عن كلام المخلوقين حسنه وسيئه، صحيحه وفاسده؛ ذلك أن الحاكم في الدنيا والآخرة هو الله وحده ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠]، وليس لكلام الخلق قيمة إلا ما كان من أمر الله، فالمرجع في معرفة حسن النفس وقبحها هو

الله. لذا؛ فالثناء الحقيق بالفرح هو ثناء الرب لا العبيد، وهو الذي ينبغي الالتفات إليه والعمل في تحصيله. روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت وآداب اللسان» عن أبي البختري قال: أثنى رجل على علي ﷺ في وجهه، وقد كان بلغه أنه يقع فيه فقال له علي ﷺ: «أنا دون ما قلت، وفوق ما في نفسك»[1].

ثالثها: الرياء، ومن الآفات المزلقة التي قد يصادفها العامل في هذا الميدان، آفة الرياء ومرض العجب؛ فيجب على المؤمن أن يوقن أن أعماله لا تقبل إلا بالإخلاص، وأن مقام الإخلاص يحتاج إلى مجاهدة عظيمة. وينتبه إلى بعض حيل الشيطان في إدخال الرياء على قلب المتعبد، من ذلك: ذم الرياء وتضخيمه في نفس السالك، حتى يصرفه عن عمل الخير خوفًا من أن يكون واقعًا في الرياء. فإذا عرض للسالك مثل هذا الوسواس؛ فليستحضر أنه من كيد الشيطان ومكره، وليمض في عمله الصالح متوكلًا على الله؛ فإن مواصلة العمل مع مجاهدة هذا الوسواس أشد على الشيطان وأقطع لطريقه.

رابعها: العجب؛ وهو الإعجاب بالنفس والركون إلى العمل، فما إن يتمكن هذا الداء من القلب حتى يفسد عليه سيره من حيث لا يحتسب، ويغلق عليه أبواب الانتفاع وهو يظن أنه قد بلغ الغاية؛ ذلك أن العبد متى ما أعجبته نفسه في صور تعبدها بان أنه عابد هواه مجانب لعبادة الله وحده؛ فالذي يسلك السبيل

---

[1] الصمت وآداب اللسان (ص ٢٧٥).

إلى الله لا يرى غيره، ولا يسلك إلا السبيل الذي أمر الله به عباده، وسبيل الله مجانب لسبيل من يرى نفسه في العبادة، بل المعلوم أن الإنسان لا يدخل جنة الرب إلا برحمة من صاحبها، فكيف يعجب بعمله! وأي قيمة له إن لم يكن خالصًا لله!

والمعجب بنفسه هذا لا يفهم حقيقة العبودية لله، ولا تغرس في نفسه معرفة عظمة الله؛ ذلك أنه يتعامل في عبادته معاملة الموظف الذي يفعل مهامه منتظرا الأجر المستحق، وإن برز في عمله استحق الزيادة. وهذا مما يدخل على كثير من الناس، والحق أن الله سبحانه له الجنة يدخل بها مَن شاء من العصاة ويصرف عنها مَن شاء من العبيد. وليس لعابد حق على الله إلا ما وعد الله به ترغيبًا للعباد بنجاتهم. وحتى عبادة العبد لله لا تكون إلا بتفضل من الله؛ فإن كان خلق العبد بفضل الله، وهدايته بفضله، وعبادته بفضله، ودخوله الجنة بفضله. فأي شيء يبقى للإنسان يفخر به على بقية المخلوقين!

ولا سبيل إلى علاج هذا المرض إلا بالمداومة على مراقبة النفس وتزكيتها، والنظر الدقيق في عيوبها، وأكثر الناس يعلمون كثيرًا من عيوبهم ولو لم يدققوا النظر؛ فإذا دققوا عرفوا أكثر العيوب أو كلها، وهؤلاء عندهم بصيص نور للهداية، ومعرفة العيوب أول الطريق، ولعل هذه حال أكثر الناس. أما مَن لا يرى لنفسه عيبًا، وكان صادقًا بادعاء الكمال، فلا مخرج له إلا برحمة من الله تنزل

عليه، فأي عبد ذليل لله يرى من نفسه حق الجنة! وكيف لا يخاف مخلوق حقير أن يزيغ الله قلبه ثم يطرحه في جهنم! نسأل الله السلامة والعافية.

استغلال أوقات الفراغ

وفي الدوامات دائمًا ما يوجد وقت فراغ، كأن يكون العمل قليلًا أو سهلًا يمكن تجاوزه مع غيره فيستغله السالك إلى الله بأنواع الخيرات كالقراءة أو السماع ونحوها من مصادر التعلم، أو متابعة الأخبار التي لها صلة بأحوال المسلمين كالنظر في الحروب والتطورات السياسية والاجتماعية، والنظر في أحوال المجاهدين وتتبع أخبارهم. ولا يستخفن المرء بهذا الوقت مهما قصر أو رافقته مشاغل، فإن الله يعين السالك إليه، وقد روى الإمام البخاري عن عائشة، أنها قالت: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**أَدْوَمُها وإنْ قَلَّ**»، وقال: «**اكْلَفُوا مِنَ الأعْمالِ ما تُطِيقُونَ**»[1].

ثم يحاول نوم القيلولة المعينة على إكمال اليوم خلال دوامه، ولا يحسن مطلقا أن تكون بعد العصر، بل يفعلها في وقت الظهر ولو دقائق معدودة على كرسيه ونحو ذلك؛ فإن لها فوائد للبدن والنفس، روى الإمام الطبراني في «الأوسط» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيْطانَ لَا يَقِيلُ**»[2].

---

[1] البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٣).

[2] المعجم الأوسط (٢٨).

قال حجة الإسلام: «ينبغي أن تستعد لصلاة الظهر قبل الزوال، فتقدم القيلولة إن كان بك قيام في الليل، أو سهر في الخير؛ فإن فيها معونة على قيام الليل، كما أن في السحور معونة على صيام النهار، والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار»[1].

ولا بد أن يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد إن استطاع وإلا جمع بعض المصلين من أهل دوامه. وكثير من الناس يتساهلون في هذا الباب معتبرين أنهم معذورون في ترك الجماعة بحجة الدوام، والحق أن لا ضرورة تمنعهم عن أداء الواجب، فالجماعة تقع باثنين، فلو وجد واحدًا يصلي معه جماعة يثبت له أجر الجماعة ويسقط عنه واجبها، وبذلك يظهر شعائر الإسلام في موطن ليس فيه إلا الكلام في اللهو والتجارة، ولعل الصلاة وحدها على هذه الهيئة تكون دعوة للعاصين.

روى الشيخان في وجوب الجماعة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ يُحْتَطَبُ، ثُمَّ آمُرَ بالصَّلاةِ فيُؤَذَّنَ لَها، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النّاسَ، ثُمَّ أُخالِفَ إلى رِجالٍ فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو يَعْلَمُ أَحَدُكُمْ أنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْماتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشاءَ**»[2]، وروى الإمام مسلم عن أبي الأحوص قال: قال عبد

---

[1] بداية الهداية (ص ١١٨).

[2] البخاري (٧٢٢٤)، ومسلم (٦٥١).

الله بن مسعود: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنَ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ. أَوْ مَرِيضٌ. إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ. وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى. وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ»[1].

وروى الشيخان في فضل الجماعة والمسجد عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الجَماعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ: إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إلى المَسْجِدِ، لا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بها دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بها خَطِيئَةٌ، فَإِذا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، ما دامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. وَلا يَزالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاةٍ ما انْتَظَرَ الصَّلاةَ**»[2].

بعض آداب الصائم

ثم إن كان صائمًا أكمل صيامه متأدبًا بآداب الصائم، ويتأكد على الصائم ترك آفات اللسان من الكذب والغيبة والنميمة أكثر من غير الصائم، ويخفي صيامه ما استطاع، ولا يسترسل مع شيطانه في الغضب، لأن الصائم فيه حرارة الغضب لعدم اعتدال مزاجه بفقدانه الغذاء، ومواطن العمل مسببة للغضب، فلا

---

[1] مسلم (٦٥٤).

[2] البخاري (٦٤٧).

بد من الصبر والاحتساب وتذكر العواقب، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وروى الشيخان عن أبي صالح الزيات: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له، إلّا الصِّيامَ؛ فإنَّه لي، وأَنا أجْزِي به، والصِّيامُ جُنَّةٌ، وإذا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أحَدِكُمْ فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإنْ سابَّهُ أحَدٌ أوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إنِّي امْرُؤٌ صائِمٌ. والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِن رِيحِ المِسْكِ. لِلصّائِمِ فَرْحَتانِ يَفْرَحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بصَوْمِهِ**»[1]، وروى الإمام البخاري في قول الزور عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ للهِ حاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ**»[2]. وروى الإمام البخاري في الغضب عن أبي هريرة: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**». فَرَدَّدَ مِرارًا، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»[3].

قال الإمام ابن حزم: «قول رسول الله ﷺ للذي استوصاه: «**لَا تَغْضَبْ**»، وأمره عليه السلام أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه؛ جامعان لكل فضيلة، لأن في

---

[1] البخاري (٦٤٧).

[2] البخاري (١٩٠٣).

[3] البخاري (٦٤٧).

نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها، وفي أمره عليه السلام أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لأزمة العدل الذي هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة»[1].

كذلك روى الشيخان عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[2]، وروى الإمام النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّدِيدَ لَيْسَ مَنْ غَلَبَ الرِّجَالَ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ**»[3].

مقدار الأكل وميقاته

وإن لم يكن صائما؛ أكل غداءه في وقته، والأصل أن الأكل في اليوم وجبتان: الأولى هي الغداء في وقت الغدوة وهو قبيل الظهر، ويأكل قدر حاجته دون إسراف، كما قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي تقسيم الأكل ومقداره روى الإمام الترمذي عن مقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

[1] الأخلاق والسير (ص ٨٤).

[2] البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

[3] النسائي (١٠١٥٦).

«مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1].

وقال العلامة المحقق: «المفسد الرابع من مفسدات القلب: الطعام. والمفسد له من ذلك نوعان: **أحدهما**: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات، وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير؛ ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا وإما حياء وتذممًا. **والثاني**: ما يفسده بقدره وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسر كثيرًا»[2].

---

[1] الترمذي (٢٣٨٠).

[2] مدارج السالكين (٢/٩٥).

الفصل الثالث

السكينة

انتهت مراحل ذروة الشياطين ولم تنته وسوساتهم؛ ذلك أن شياطين الجن أشد ما يكون حالهم في الفترة الأولى لمنع السالك من بدء يومه على مراد الله كما أرادوا منع آدم عليه السلام من بدء حياته على مراد الله. ثم إن شياطين الإنس تكون ذروتهم في الفترة الثانية، لكثرة الاختلاط بهم من دون تمييز وفحص للصالح منهم والفاسد، والخلطة أصلها اجتماع على كسب المال، والخلطة في مجتمعات فاسدة تربت على هدم الحلال بالحرام عمليا؛ لذلك كان شياطين الإنس في هذا الموطن أشد من غيره.

ثم تأتي فترة السكينة ما بعد الدوام قريبًا من صلاة العصر، حيث يرجع الرجل إلى بيته وأهله بعد ساعات من الخلطة المؤذية للنفس والجسد. ولا بد عند رجوعه من رمي ما أتعب نفسه وراء ظهره ونسيانه، ولا يدخل بحمولة سوء على أهله، إنما يرجع بالفأل والأمل؛ إذ الرجل إن كان زوجًا هو ركن البيت، متى ما تضعضع كان البيت أقرب للسقوط، ولو كان أخًا من أي المراتب كان فهو في نظر البقية مشروع أب، والانهيار أو التصدع نذير سوء على عدم احتماله المسؤولية.

ولا يمكنه رمي أمراض الخلطة إلا بالصبر والرضا بقضاء الله النافذ، وتوكيل أمره إلى الله وأن الله خير مَن يختار له، وأنه لو وكله إلى نفسه طرفة عين لهلك. لو

نظر السالك بهذه الطريقة وسلم الحكم القدري لله راضيًا به صابرًا على أذاه، عندها يمكنه الوصول إلى مرتبة السكينة التي هي نفحة من نفحات الجنة، ولن يصل إلى نفحة من نفحاتها إلا مَن كان متخلقًا بأخلاق أصحاب الجنان. فإن جنة الآخرة معدة للمؤمنين الأتقياء المستسلمين لله سبحانه، وجنة الدنيا هي جزء من أجزاء جنة الآخرة، ولا يدخل الله جنته إلا لمن رضي عنه، ولا يرضى إلا عن المؤمنين، قال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

الزواج وحسن المعشر

يختزل أكثر الناس الزواج بأمور معدودة شهوية وعاطفية: أما الرجال فيغلب عليهم النظر الشهوي للزواج، وأما النساء فيغلب عليهم النظر العاطفي. ولا شك

أن الأمرين مهمان في العلاقة الزوجية، بل من أساساتها. لكن السالك إلى الله ينظر في كل حركة وسكنة إلى ما يقربه إلى الله، وإن كان سبحانه أمر بالزواج – وجوبًا أو استحبابًا– فلا بد هو قربة إلى الله بذاته وبما يترتب عليه من قرب؛ إذ الطاعة تجر الطاعة، كما أن المعصية تجر أختها. فالزواج في لبه رفقة في الطريق إلى الله، وتعاون على الطاعة، وتناصر على البر، وتكامل في تربية الأبناء، وحمل مشترك لأعباء الحياة. ومع ذلك فلا تخلو هذه المسيرة من خلاف؛ إذ هو من طبيعة البشر، والعبرة ليست بوقوعه، وإنما بحسن التعامل معه، وضبطه بالحلم، واحتوائه بالحكمة، وعدم تحويله إلى معركة.

لذا؛ فأصل نية الزواج إعفاف النفس عن الحرام بطلب الحلال والظفر به، وإدخال شريك الزوجية في سبيل السلوك والتعبد، وبناء بيت الزوجية المستقر على طاعة الله والعمل لمرضاته، والسعي في إنجاب الذرية الصالحة الحاملة هم الدعوة، والنظر إلى المجتمع بعين الإصلاح ليكون منتج هذه الأسرة مشروعًا من مشاريع إصلاح الأمة. والميل إلى الزواج جريان مع الفطرة، وسلوك سبيل العفة، واتباع هدي النبوة، إذ في المبادرة إليه سلامة للدين، وسترة للنفس، وحماية من أبواب الانحراف، والتساهل في تأخيره بلا موجب يفتح منافذ للفتنة، ويُضعف سلطان التقوى في القلب.

ومن تمام فضائل الزواج: احترام مفهوم العقود المرضية بين الناس، فالحفاظ على عقد الزوجية واجب شرعي لاتصاله بأوامر الشريعة، وأخلاقي عرفي لكونه

بين العباد. والناظر في حال المجتمعات والجماعات الإسلامية يرى ضعف مسألة العقد في النفوس، في عقود البيوع والزواج والبيعات. كلها تستحل عند أدنى نظر للفاسخ من دون مراعاة لشروط العقد؛ لذا مَن فهم معنى عقد الزوجية انضبط فهمه لبقية العقود المتعلقة بالمخلوقين، والتزم بها كلها لوجوبها الشرعي العبادي والأخلاقي العرفي، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن ١٤-١٦].

السعادة

تسعى النفوس سعيًا حثيثًا خلف السعاد؛ فكثيرًا ما تظنها في لذة عابرة أو نعمة سريعة الزوال، فتلهث خلف سراب لا يروي ظمأها، وتفرح فرحًا لا يلبث أن ينقلب قلقا وحسرة. وقد يرزق المرء من حطام الدنيا ما تقر به العيون، وهو في باطنه أضيق الناس صدرًا وأشدهم شقاء؛ فليست العبرة بما يرى من أحوال الناس، بل بما يستقر في قلوبهم من طمأنينة أو اضطراب.

وأما السعادة التي استقر معناها عند أهل الحق؛ حال ثابت من السكون النفسي والطمأنينة القلبية، تنشأ حين توافق النفس مراد خالقها، ويستقيم القلب

على أمر مولاه. هي ثمرة معرفة تورث انقيادا، وعبودية تثمر راحة؛ فمتى صلح الباطن استقام الظاهر، وحينئذ يذوق العبد طعم السرور الذي لا تفسده تقلبات الأيام ولا تنزعه تقادير الأحوال.

وهنا تتجلى سنة جارية في الدنيا قبل الآخرة: أن العمل له جزاء معجل في النفس والحياة، كما له جزاء مؤجل في الدار الآخرة؛ فالطائع يعيش جنة في دنياه قبل جنته في أخراه؛ جنة السكينة والرضا والأنس بالله، وجنة المعنى الذي يمنح للحياة وزنها واتجاهها. وأما المعرض، وإن اتسعت عليه الأسباب، فإنه يتقلب في جحيم باطني من القلق والاضطراب، لا يهدأ له بال ولا يستقر له قرار. ولهذا لا تجد الطمأنينة الحقة إلا في محراب العبودية، ولا تنشرح الصدور إلا في ظلال الإيمان، فهي سعادة لا يعكرها فقر ولا ينقضها مرض، لأنها قائمة على أصل راسخ لا على متاع زائل، فمن تعلق قلبه بربه استغنى به عن خلقه، ومَن ركن إلى ذِكره سكن قلبه ولو اضطربت من حوله الدنيا.

ومَن أخطأ الميزان، فرأى السعادة في تكديس المال أو الارتقاء في الجاه ظل جائع الروح مهما امتلأت يده، ومتعب القلب مهما علت منزلته. إذ الشقاء الحقيقي فقر إلى الله، ولو حاز صاحبه مفاتيح الدنيا. ومن هنا كان الإيمان أصل السعادة وأساسها؛ لأنه يعيد ترتيب الداخل قبل الخارج، ويجعل للعمل أثره في القلب قبل أن يكون له ثمر في الظاهر؛ فإذا استقر في القلب أن الراحة –كل

الراحة- في رضا الله، وأن القرب منه هو الجنة المعجلة.. تحرر الإنسان من عبودية الأشياء، وسما فوق تقلبات الدنيا.

قال العلامة المحقق: «وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية. واستكمال القوة العلمية إنما يكون: بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها؛ فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها. واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصًا وصدقًا ونصحًا وإحسانًا ومتابعة وشهودا لمنته عليه وتقصيره هو في أداء حقه؛ فهو مستحٍ من مواجهته بتلك الخدمة؛ لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته؛ فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط: إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب. فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور»[1].

---

[1] الفوائد (ص ٢٥).

الغفلة في ساعة السكينة

ولا يسلم هذا الموطن من غفلة تعتري الإنسان؛ فالنفس لها نصيب من الفتور، والهوى له ساعة رقاد، وهذا من سنن الابتلاء في مسير المتعبد. غير أن السالك لا يسلم قلبه للراحة الموهومة ولا يركن إلى السكون الغاش، بل يبقى متنبها لوساوس الشيطان حتى لا تفتر نفسه إلى ما دون درجة الواجب على العامة أو على السالك في مدرجه؛ فيعلم أن السكينة التي أتاها مرحلة مؤقتة لا دوام فيها، وأن الطريق الذي يسلكه ليس طريق ترف ولا دعة، بل طريق تعب سلكه مَن سبقه؛ فابتلوا وصبروا ومضوا، ومَن فترت همته لزم ما دون الارتقاء، ومَن ثقل مشيه –وهذا حال الأكثرين– لحق بالركب بعد حين إذا أمده الله بالمعونة.

والغفلة في هذه الأوقات خطرة مميتة؛ ذلك أنها تأتي في صورة راحة مستحقة بعد مجاهدة للشيطان، وتندس في حال السكون بعد الكد في مجابهة الخطرات الشاذة؛ فإن لم تضبط انقلبت من عون على السير إلى قاطع عنه. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»[1].

---

[1] أحمد (٦٩٥٨).

مع ذا؛ لا يعني التنبه للغفلة أن يكون المرء دائم الحزن شارد الذهن مكدر الخاطر، بل لا بد له من وقت راحة وتسلية، وهذا من واجبات المرء إن كان زوجًا وصاحبًا؛ ذلك أن الحياة عامة والزوجية خاصة لا تبنى على الكآبة والضيق الملازمين لمن ظن أنه سالك إلى الله، بل على المودة والرحمة الناشئين عن الاهتمام بأمور الدين والدنيا؛ ومن أمور الدنيا اللعب والضحك والسمر وما شابه ذلك مما ليس فيه تعد لحدود الشرع ولا خروج عن صراط الثبات، يبقى المتعبد على سبيل بين الجفوة والحزن وبين الأمن والغفلة.

قال العلامة ابن مفلح: «فصل في استحباب الانبساط والمداعبة والمزاح مع الزوجة والولد، قال في «الفنون»: «قال بعض المحققين [يعني نفسه]: ما أدري ما أقول في هؤلاء المتشدقين في الشريعة بما لا يقتضيه شرع ولا عقل، يُقبّحون أكثر المباحات، ويبجلون تاركها حتى تارك التأهل والنكاح. والعبرة في العقل والشرع: إعطاء العقل حقه من التدبر، والتفكر، والاستدلال، والنظر، والوقار، والتمسك، وبالإعداد للعواقب، والاحتياط بطريقة هي العليا يخص بها الأعلى الأعز الأكرم، ومعلوم أنه قال «مَن كان له صبي؛ فليتصاب له». وكان -عليه السلام- يُرقّص الحسن والحسين ويداعبهما، وسابق عائشة، ويداري زوجاته... إلى أن قال: والعاقل إذا خلا بزوجاته وإمائه ترك العقل في زاوية، كالشيخ الموقر، وداعب ومازح وهازل ليعطي الزوجة والنفس حقهما، وإن خلا بأطفاله. خرج في صورة طفل، ويهجر في ذلك الوقت». انتهى كلامه. والخبر الأول لا يصح، وكان -عليه الصلاة والسلام- يكون في

بيته في مهنة أهله وغير ذلك من شدة تواضعه ومكارم أخلاقه وسيرته العالية ﷺ، بخلاف ما يفعله كثير من أصحاب النواميس والحمقى والمتكبرين، مع اشتمال بعضهم مع ذلك على سوء قصد وجهل مفرط؛ فيتكبر على مَن خالف طريقته، ويصير عنده المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا. فنسأل الله العظيم أن يهدينا والمسلمين الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»[1].

الراحة الحذرة

فإذا دخل المنزل تنظف وتطيب بعد سلامه على أهله، والاستحمام في هذه الحالة موطن راحة للنفس والجسد؛ أما الجسد فتنظفه من الأدران التي لحقت به أثناء العمل، وأما النفس.. ففي التأمل عند الجلوس بعيدًا عن ضجيج المجتمع في حالة استرخاء مولدة لكثير من الأفكار عن النفس والحياة. وهذه من الوسائل المهمة لراحة الإنسان حتى يلاقي أهله بعد ذلك منشرح القلب؛ فيجلس إلى أهله مفاكها مدة معلومة يشتكي فيه كل إلى الآخر عن بعض ما مر به، شكوى الصابر الراضي لا الساخط المتململ، ثم يتجه إلى ما ينفعه. قال الإمام ابن الجوزي: «تلمحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم، فمنهم مَن لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل، ومنهم مَن لا ينقي يديه في غسلهما من الزهم، ومنهم

---

[1] الآداب الشرعية (٣/٢٣٩).

مَن لا يكاد يستاك، وفيهم مَن لا يكتحل، وفيهم مَن لا يراعي الإبط إلى غير ذلك، فيعود هذا الإهمال بالخلل في الدين والدنيا. أما الدين، فإنه قد أمر المؤمن بالتنظف، والاغتسال للجمعة، لأجل اجتماعه بالناس، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم، وأمر الشرع بتنقية البراجم، وقص الأظفار، والسواك، والاستحداد، وغير ذلك من الآداب. فإذا أهمل ذلك، ترك مسنون الشرع، وربما تعدى بعض ذلك إلى فساد العبادة، مثل أن يهمل أظفاره، فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل. وأما الدنيا، فإني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدمون إلى السرار، والغفلة التي أوجبت إهمالهم أنفسهم أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم، فإذا أخذوا في مناجاة السر، لم يمكن أن أصدف عنهم؛ لأنهم يقصدون السر، فألقى الشدائد من ريح أفواههم، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمرّ إصبعه على أسنانه! ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة، وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل، فيثمر ذلك التفاتها عنه، وقد كان ابن عباس ﵄ يقول: «إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي». وفي الناس مَن يقول: هذا تصنع! وليس بشيء، فإن الله تعالى زيننا لما خلقنا؛ لأن للعين حظًّا في النظر، ومَن تأمل أهداب العين والحاجبين وحسن ترتيب الخلفة، علم أن الله زين الآدمي. وقد كان النبي ﷺ أنظف الناس، وأطيب الناس. وفي الحديث عنه ﷺ: يرفع يديه حتى تبين عفرة إبطيه. وكان ساقه ربما انكشفت، فكأنها جمارة. وكان لا يفارقه السواك، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة. وفي حديث أنس الصحيح:

«ما شانه الله ببيضاء». وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه، قل همه، ومَن طاب ريحه، زاد عقله. وقال ﷺ لأصحابه: «**مَا لَكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا؟ اسْتَاكُوا**»[1]. وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك. فالمتنظف ينعم نفسه، ويرفع منها قذرها. وقد قال الحكماء: من طال ظفره، قصرت يده. ثم إنه يقرب من قلوب الخلق، وتحبه النفوس، لنظافته وطيبه. وقد كان النبي ﷺ يحب الطيب. ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال، فإن النساء شقائق الرجال، فكما أنه يكره الشيء منها، فكذلك هي تكرهه، وربما صبر هو على ما يكره، وهي لا تصبر. وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد، وهم من أقذر الناس، وذلك أنهم ما قومهم العلم. وأما ما يحكى عن داود الطائي: أنه قيل له: «لو سرحت لحيتك؟» فقال: «إني عنها مشغول»؛ فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة، والإخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة، ولو كان مفيقًا لذلك، لم يتركه، فلا يحتج بحال المغلوبين. ومَن تأمل خصائص الرسول ﷺ، رأى كاملًا في العلم والعمل، فيه يكون الاقتداء، وهو الحجة على الخلق»[2].

وهنا تنبيه لا يهمل: ينبغي أن يكون مَن يشارك الحياة على علم بطبيعة السير، وأن السالك صاحب مقصد، منضبط بالوقت، ليس متاحًا على الدوام

---

[1] أحمد (١٨٣٥).

[2] صيد الخاطر (ص ١٤٢-١٤٤).

للمفاكهة، ولا تدار حياته بالأهواء والصدف؛ فالسالك لا يعيش مستهلكًا للزمن، ولا ينقاد لما يعرض عليه بلا نظر في العاقبة.

وسكينة هذه الأوقات قد تكون نعمة إن ضبطت، وقد تنقلب غفلة إن أطلقت؛ فالنفس عند الراحة تطلب التوسعة، والهوى يمتد، والشيطان يسري، والدنيا تحسن هيئتها ومفاتنها. فإن لم يكن القلب حاضرًا تسرب التفريط من باب المباح المقوي على الطاعة. فلا انغماس في اللذات، ولا استرسال في الترف، لأن الغفلة لا تدخل دفعة واحدة، وإنما تخطو على مهل. لذلك كانت ملاذ الدنيا فتنة للمؤمن، منها نعمة الزوجة والولد والمال؛ فمن لم يعمل بهذه النعم شاكرًا لله في قلبه ولسانه وجوارحه انقلبت فتنة ورمت بالسالك إلى جنبات الطريق المردية، فقد قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن ١٤-١٦].

قال العلامة المحقق: «كيف يسلم مَن له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمَّارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مرد، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه؟ فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهلكة»[1].

عبادة ما بعد السكينة

وفي هذه المرحلة يقتطع السالك وقتًا للعلم والمذاكرة إلى أذان المغرب، إذ يكون الذهن قد استعاد شيئًا من صفائه بعد سكينة العصر. فإن كان غير صائم تناول عشاءه قبيل المغرب مع أهله، وهي وجبته الثانية، ثم يتوجه إلى المسجد ذاكرًا لله متنبها لأذكار المساء الواردة في السنة. والذاكر يقع في إشكال عند محاولة استحضار القلب حال الذكر، أو حتى في تعويد اللسان على الذكر، وللناس في تعويد القلب واللسان طرائق، والكل يعود إلى المجاهدة، فلا شيء يحيي القلب ويرطب اللسان بالذكر كمجاهدة النفس عليها كونها عبادة من العبادات؛ بل من أعظمها، والشيطان متربص بابن آدم لتثبيطه عن العبادة.

قال العلامة المحقق: «من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان، وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه، فيتواطأ على الذكر. ومنهم مَن لا يرى

---

[1] الفوائد (ص ٦٤).

ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه؛ فإذا قوي استتبع لسانه، فتواطأ جميعًا. فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولًا حتى يحس بظهور الناطق فيه؛ فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا. وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[1].

وإن كان صائمًا قصد المسجد قبل المغرب؛ فيدخل الصلاة وقد خف حمل الجسد، وانكسر سلطان الشهوة، فتصير العبادة أصفى وأقرب إلى حضور القلب. ثم يرجع بعد ذلك إلى بيته للإفطار، ويجلس مع أهله أو إخوانه إلى صلاة العشاء. وهذه الجلسة ليست فراغا زمنيا يملأ كيفما اتفق، ولا متنفسًا للطبع يسترسل فيه بلا ضابط، بل هي موطن اختبار في فقه الخلطة، إذ الخلطة بذاتها لا تمدح ولا تذم، وإنما ينظر إلى أثرها في القلب واتجاهها في النفس.

قال العلامة المحقق: «الاجتماع بالإخوان قسمان: **أحدهما**: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت. **الثاني**: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب

---

[1] الفوائد (ص ٢٧٨).

النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود. وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح: إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح؛ فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك»[1].

الأخوة

من مهمات الحياة: وجود إخوة للسالك إلى الله يستعين بهم في مسيره، يتعاون معهم في الطاعة ويتفاكه معهم في وقت الراحة وتسلية النفوس، وليست القضية ترفًا ولا أمرًا زائدًا عما يحتاجه السالك إلى الله، بل الإنسان مدني بطبعه مفطور على الاجتماع والخلطة، ومتى لم يملأ الخلطة بإخوة ساعين إلى الله ملأها بالفساق والفجار، قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

ويتقرب السالك من إخوانه بطريقين: إما أن يكون ميله لأحدهم ميلًا فطريًّا، بأن غرس الله في قلبه محبته مذ لاقاه أو خالطه من تحديد منه لسبب هذه المحبة؛

---

[1] الفوائد (ص ٧١).

وفي هذا السبيل لا يمنع الإنسان من مخالطة مَن تهفو إليه نفسه، لكنه ينتبه في خلطته لعلمه أن هذه المعاشرة ليست مبنية على برهان دله على حسن المعشر، إنما على حدس نفسي وجداني، والحدس الوجداني قلَّ ما يفشل عند المترقين في مدارج الأولياء وقلَّ ما يصيب عند من دونهم.

والمسلك الثاني في القرب من الصاحب هو في النظر إلى صفاته وأفعاله وسلوكه، والنظر في حاله إن كانت خلطته مناسبة للسالك في دينه ودنياه، لا أن تكون خلطة يتراجع فيها السالك عن سلوكه خطوة أو خطوات؛ فإن درس السالك حالة الصحب، ووجدهم أهلًا ليرافقوه في طريقه ظفر بالخير الكثير والعاقبة الحميدة؛ إذ هم أساس في تثبيته إذا اقترب الشيطان لإغوائه، وهو كذلك مساعد في تثبيتهم وتمتين الإيمان في قلوبهم.

روى الإمام أبو داود في السنن عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير أن عمر بن الخطاب قال: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ، قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ**

النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ»، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢][1].

عمل ما بعد المغرب

وأما غير الصائم، فيكون له بعد المغرب مجلس علم في المسجد بين الأذان والإقامة؛ إذ يكون الذهن قد هدأ، والنفس قد خرجت من صخب النهار، والجسد لم يثقل بالطعام، فينوي بجلسته الاعتكاف، ويبحث عن مجالس للعلماء أو يجلس للمذاكرة مع نفسه أو أقرانه. قال حجة الإسلام: «ولا تحضر في الجامع مجالس الحلق، ولا مجالس القصاص، بل مجلس العلم النافع، وهو الذي يزيد في خوفك من الله تعالى، وينقص من رغبتك في الدنيا، فكل علم لا يدعوك من الدنيا إلى الآخرة فالجهل أعود عليك منه؛ فاستعذ بالله من علم لا ينفع»[2].

وأما الصائم فله في ذلك عِوض بعد العشاء، إن كان مجلس طعامه بعد صلاة المغرب؛ فليس القصد من التزكية وسلوك الطريق قطع المتعبد وبتّه عن دنياه، إنما أن تكون حركاته وسكناته التي يحتاج إليها بدنه هي لله. فلا يزاحم مجلس طعامه بشيء مما يشق، إنما ينوي ما فيه خير وثواب، كالتقوي على طاعة الله مع الدعاء عند الإفطار لكونه من مواطن الإجابة. وليس شيء من عباداته ولا حتى مذاكرته

---

[1] أبو داود (٣٥٢٧).

[2] بداية الهداية (ص ١٦٢).

ضائعًا إذا زاحمه الصيام، ذلك أن الله يقضي بالثواب للمعتاد على العبادة إن تركها حال مرضه، فكيف إن زاحمها بعبادة هي من أجلّ العبادات عند الله. والظن بالله أن التعب المشتت الناتج عن الصيام الذي يضعف النفس ويحجبها عن العلم في وقت معين.. الظن الحسن أن الله يبدل السالك وقتًا خيرًا من ذلك، ويفتح عليه من المعارف ما لم يكن ليفتح لولا صيامه، إذ العلم فتح من الله لا مجرد حفظ للمعلومات، ومتى أرضى العبد ربه ساق له الخير من حيث لا يحتسب.

فبهذا الترتيب الذي سطرناه لا تتحول ساعات ما بعد المغرب إلى فراغ لا قيمة له غير الركون إلى الدنيا، ولا يسمح فيها للشيطان بالدخول على ابن آدم؛ فإن الشيطان عاشق للنتوء والفراغات في الخطط، فأينما رأى ثقبًا حاول توسعته ليدخل منه هو ومَن معه من الشياطين. فإن أحكم السالك خطته نظرًا واعتقادًا بها وعملًا بمقتضاها صعب على الشيطان اختراقها؛ كحائط صلب أملس ليس فيه ما يسمح للجرذان بالعبور، قال العلامة المحقق: «ومن أعظم الأشياء ضررًا على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولابد»[1].

---

[1] طريق الهجرتين (٢/٥٩٧).

الفصل الرابع

الزاد

هذه المرحلة من اليوم هي موضع الزاد لليوم الذي يليه؛ فمن أحسن التزود فيها استقبل نهارَه بقلب ممتلئ وقوة حاضرة، ومَن فرَّط دخل معركته اليومية وهو خفيف السلاح ضعيف العدة. فالخير الذي يُغرَس في هذا الوقت هو الذي يمد السالك عند الاحتكاك والابتلاء، والتقوى هي خلاصة هذا الزاد وروحه، بها تُحفظ البصيرة، ويثبت العزم، ويستقيم السير، قال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولهذا كان الليل ميدان الإمداد الأعظم، فيه تستعاد السيادة على النفس، وترتب القلوب من الداخل، ويقوى العهد مع الله بعيدًا عن صخب النهار؛ فقيام الليل مطية السائرين، وسر ثباتهم على الطريق، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء: ٧٩-٨٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨﴾ [المزمل: ١-٨].

رياضة الذهن والجسد

ولا يغفل في هذا الوقت شأن الجسد، فإنه وعاء التكليف، وسلامته مما يعين على دوام السلوك؛ فساعة من الرياضة بعد العشاء مما يحفظ الاعتدال، ويصرف عن النفس كثيرًا من الثقل والركود، على أن يحسن السالك تدبيرها بين أيام للنشاط وأيام للأهل، حتى لا يختل الميزان ولا تستنزف الطاقة.

فإذا فرغ عاد إلى العلم، ولا ينسى أن العلم الحق ما قربه إلى الله، بمعرفة الله ورسوله وشريعته، وتعلم ما ينفع في التمكين لدينه في الأرض، وإعانة عبيده المأمور بإنجادهم؛ فكل تلك العلوم داخلة في العلم النافع. ومَن كان بعيدًا عن العلم كله، لا تنقاد له العلوم ولا تتذلل له مسائلها؛ فليلزم العبادة، بالذكر والصلاة والسعي في مشاكل الناس؛ فإن أبواب الخير كثيرة لا تحصر بالعلم، وهذا من رحمة الله بنا أن جعل العبادات أصنافًا متكثرة لتناسب كل مزاج، ومع ذلك جعل من كل صنف واجبًا معينًا لكسر النفس كي لا تنقاد بشهواتها وهواها.

وليتنبه السالك عند هذا الملحظ؛ فإن لم يكن طالب علم، ولا ساعيًا إلى ذلك؛ فلا بد له من عالم يستفتيه في أمور دنياه وآخرته، إذ المتعبد مهما بلغ الرتب العالية في منازل السائرين، لا يمكنه الإفتاء لنفسه في قضايا الشريعة، إنما الأمر موكول إلى العلماء إجماعًا، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا

قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

قال حجة الإسلام في الموازنة بين معاصي المقلد واجتهاده فيما لا يحسن: «وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم»[1]، وذلك لكون الكلام في العلم من غير المتمكن قول على الله بغير علم، وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال الإمام ابن الجوزي في بعض تلبيس إبليس على العامة: «ومن العوام من يرضى عن عقل نفسه، فلا يبالي بمخالفة العلماء؛ فمتى خالفت فتواه غرضه.. أخذ يرد عليهم، ويقدح فيهم. وقد كان ابن عقيل يقول: «قد عشت هذه السنين، فلو أدخلت يدي في صنعة صانع لقال: أفسدتها علي. فلو قلت: أنا رجل عالم. لقال: بارك الله لك في علمك، ليس هذا من شغلك، هذا وشغله أمر حسي لو تعاطيته فهمته، والذي أنا فيه من الأمور أمر عقلي، فإذا أفتيته لم يقبل»»[2]، وكلام الإمام ابن عقيل مبني على طبيعة البشر في معاملة التخصص، فلا يختلف عاقلان أن التخصص لا يمكن الدخول فيه لغير المتقن، فلا المزارع يتكلم في الطب، ولا الصياد يحدث في النجارة... وكذا العلم الشرعي؛ فلا يحل

---

[1] الإحياء (٣/١٦٣).

[2] تلبيس إبليس (ص ٥٥٧).

الكلام فيه إلا لمن تأهل، بل الكلام في علوم الشريعة أشد، لكون العلوم الأخرى غاية الإفساد فيها إفساد البدن، أما علوم الشريعة فالغلط فيها إهلاك في الدنيا والآخرة!

عبادة الليل

ثم ينتقل بعد ذلك إلى فقرة التعبد؛ فيتهيأ لها بطهارته الظاهرة والباطنة، ويقف بين يدي الله بما تيسر له من الركعات، يطيل الركوع والسجود إطالة من يلتمس السكينة، ويجعل صلاته موضع مراجعة لما يحفظ من القرآن، يمر بالآيات مرور المتدبر، ويقف عند مواضع الوعد والوعيد، مستحضرًا الخطاب، مستشعرًا أنه المخاطب به ابتداء. وفي أثناء ذلك يعرض نفسه على ميزان اليوم المنصرم، فيحاسبها على ما قصرت فيه، وما وقعت فيه من معصية، وما فوتته من طاعة، وما بددته من وقت؛ فيقوم بين يدي ربه قيام عبد يرى عيوبه قبل أعماله، ويشهد فقره قبل صلاحه؛ فيثمر له ذلك خشوعًا وسكونًا وانكسارًا صادقًا. وهذا الوقوف لا ينحصر أثره في لحظته، بل ينسحب على السلوك كله؛ فيظهر على حال صاحبه في ليله ونهاره، وعلى صمته وكلامه، وعلى حزنه وفرحه، فيصير أقرب إلى الوقار، وأبعد عن اللغو والحدة، وأكثر حضورًا مع الله في الخلوة والجلوة. فالموقف بين يدي الله في الصلاة إعداد للموقف الأكبر يوم اللقاء، ومَن اعتاد الوقوف هنا على تعظيم وخضوع هان عليه الوقوف هناك، ومَن استهان بهذا

المقام ضاق عليه ذلك اليوم وثقل حسابه. ولهذا كان السجود في الليل علاجًا لتعلق القلب بالعاجلة، وتذكيرًا عمليًّا بثقل اليوم الذي يسأل فيه العبد عن عمره وعمله.

قال الإمام أبو طالب المكي: «وينبغي للتالي الخائف الناصح لنفسه وللخلق السليم القلب إذا تلا آي الوعد والمدح ومحاسن الوصف ومقامات المقربين ألا يشهد نفسه هناك ولا يراها مكانا لذلك بل يشهد للمؤمنين فيها وينظر إلى الصديقين منها سلامة ونصحًا، فإذا تلا الآي الممقوت أهلها المتهدد عليها المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين شهد نفسه هناك وأنه هو المخاطب المقصود بذلك خوفًا منه وشفقًا، فبهذه المشاهدة يرجو للخلق ويخاف على نفسه ومن هذه الملاحظة يسلم قلبه للعباد ويمقت نفسه»[1].

الهم والحزن

ثم ينظر السالك في حال الهم والحزن الملازمين له؛ فلا يمر بهما مرور الغافل، بل يتفقد أسبابهما ومصادرهما؛ فإن كان الهم ناشئًا عن تشابك علائق الدنيا وتزاحمها في القلب، اجتهد في تخفيفها، ورد الأمور إلى مقاديرها، وإن كان حزنًا على ما يرى من معاصي نفسه، أو ضيقًا بما يشهده من ضعفها وتقلبها، أو شوقًا إلى حال أنقى وأقرب إلى السلامة.. حمل ذلك كله إلى الله دعاء وابتهالًا،

---

[1] قوت القلوب (١/٩١).

يسأله الهداية والثبات، وسداد القصد، وزوال الغم، من غير جزع ولا قنوط، قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال العلامة المحقق: «الحزن المقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويغير الإرادة؛ ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]. فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب على المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. وأما أن يكون عبادة مأمورًا بتحصيلها وطلبها فلا. ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات. ولكن يحمد في الحزن سببه ومصدره ولازمه، لا لذاته. فإن المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته، وإما أن يحزن على تورطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته. وهذا يدل على صحة الإيمان في قلبه وعلى حياته، حيث شعر قلبه بمثل هذا الألم، فحزن عليه. ولو كان قلبه ميتًا لم يحس بذلك، ولم يحزن، ولم يتألم، فما لجرح بميت إيلام. وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم

أقوى، ولكن الحزن لا يجدي عليه، فإنه يضعفه، كما تقدم. بل الذي ينفعه أن يستقبل السير، ويُجِدّ، ويُشمّر، ويبذل جهده»[1].

ويزداد فهمه هنا حين يعلم أن المعصية في غالب أحوالها لا تصدر عن قصد المخالفة الصريحة لله سبحانه، ولا تحديًا للرب جل في علاه، لكن القلب يسهو عن شهود الحق، والنفس تتنازعها الأعداء من كل جانب؛ فإذا غفل القلب عن استحضار الله أجلب عليه الشيطان بخيلِه ورَجِلِه، وجاءته النفس بقواها الثلاث لتقطع رأس العقل الذي يحتكم إليه الجسد. وفي هذا الاصطراع بين القوة العاقلة وبقية الأعداء تنشأ المعاصي؛ فإذا طاح العقل عن مكانه وقع الإنسان في الشرك ونسي أمر الله والدار الآخرة؛ فنسأل الله السلامة والعافية.

ومن هنا يتبين أن دفع الهم مقصد مشترك لا ينفك عنه الإنسان، وأن تهذيب النفس على احتمال المكروه يخفف وقعه إذا نزل، كما أن عدم تعليق القلب بتوقع المحبوب يضاعف الفرح إذا أوتي من غير حساب. فإذا تكاثرت الهموم وتزاحمت، انكشف كثير منها وسقط أثره، وبقي القلب محتاجًا إلى موضع واحد يجتمع فيه شتاته، وهو مقام الوقوف الصادق بين يدي الله، حيث تعاد صياغة الداخل، ويستقيم الميزان، ويبدأ يوم جديد على قدر ما زرع في ليلته.

---

[1] طريق الهجرتين (٢/٦٠٧).

قال الإمام ابن حزم: «فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها –مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب– على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه، وكل غرض غيره ففي الناس مَن لا يستحسنه؛ إذ في الناس مَن لا دين له فلا يعمل للآخرة، وفي الناس من أهل الشر مَن لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق، وفي الناس مَن يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت، وفي الناس مَن لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومَن تلاهم من الزهاد والفلاسفة، وفي الناس مَن يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه، وفي الناس مَن يؤثر الجهل على العلم كأكثر مَن ترى من العامة. وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه»[1].

ولا بد للمؤمن في سيره من أوقات يثقل فيها القلب، وتتزاحم الهموم حتى يخيل إليه أنه لن يعبرها؛ فإذا أصبح وهو يحمل أثقال الأمس، علم أن هذا لا يدفع بالتغافل، ولا يعالج بالتصالح، وليس للعبد في مثل هذه المواطن إلا أن يلقي همه إلى من لا تضيق خزائنه، وأن يشكو ضعفه إلى مَن لا يمل سماعه، قال حجة الإسلام: «فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في

---

[1] الأخلاق والسير (ص ٧٦).

فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر، فهو كيفما كان تضييع زمان»[1].

غير أن الهم ليس مجرد كرب يراد رفعه؛ بل هو في كثير من أحواله باب معرفة يكشف للعبد ما كان خافيًا من قلبه، ويظهر له مواضع الزلل والخلل؛ فالهم والحزن من البلاءات النازلة في العبد، وكلما نزل بلاء كشف للسالك الصادق خبايا نفسية سببت ذلك البلاء، كأن يكون ضعيف الثقة بالله، أو بدأت أقدامه تترنح لتحرفه عن الصراط، أو دخل الحسد قلبه... إلى غيرها من أسباب البلاء؛ فإذا نزل الهم –وأي بلاء غيره– سارع السالك إلى النظر في نفسه ليعلم موطن الخلل.

ولهذا كانت المحن من أعظم أبواب التزكية، غير أنها ليست طريقا يختاره الإنسان لنفسه؛ فلو وكل القدر إلى هواه.. لاختار السلامة، ولكن الله يسوق عباده إليها سوقا ليتمحص المؤمن، ويقوى القلب على حمل الأمانة. وكم من إنسان خرج من البلاء بقلب أنقى، وبصيرة أصفى، وقرب من الله لم يكن ليبلغه لو ترك لاختياره. وليس المطلوب ألا يجد المؤمن ألما؛ فذلك خلاف الفطرة، وإنما المطلوب أن يصبر على ما يجد؛ فالصبر عدة لا غنى له عنها، وأما الرضا فمرتبة أعلى،

---

[1] الإحياء (٤/١٢٠).

ينظر منها إلى البلاء نظر من وثق بحكمة الله وعدله. فمن كف لسانه، وضبط جوارحه، ولم يسخط، فقد أدى ما عليه، وإن كان قلبه يتقلب وجعا وحزنا.

قال الإمام تاج الدين السبكي: «إذا انزوت عنك نعمة، فأول متعين عليك -إن كنت باغيًا عودها- البحث عن سبب انزوائها: بأن تنظر إلى وظيفتك، وتفريطك فيها، بالإخلال بواحدة من وظائف الشكر، وتعلم أنك أتيت منها، فتذكر ذلك. فمتى ذكرته وكان تعلق قلبك بها صادقًا، وعلمت أنه السبب في زوالها، ندمت -ولا بد- عليه وتبت عنه، وعقدت النية على أنك إن عادت إليك النعمة لم تعد إليه. فإن قلت: لا أذكر تفريطًا، فأنت إذن جاهل. واعلم أن للشيطان وساوس وتخييلات، وأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وأنهما -أعني نفسك والشيطان- ربما أرياك الباطل حقًّا، واسترقاك من حيث لا تدري، واسترقاك وأنت تظن أنك حر؛ فاقطع واجزم بأنك مفرط لا محالة، واستغفر الله تعالى، واضرع إليه. وإن لم تدر وجه التفريط بخصوصه، فاعلمه على الجملة. ولا يكن عندك شك في أن هناك تفريطًا، فهمته، أم جهلته، وأنك منه أتيت. فإنك إذا علمت ذلك، وأيقنت به، فهمت أن الحق تعالى عادل فيك، غير ظالم لك، بل محسن إليك، أسداك نعمة بلا استحقاق، فما رعيتها حق رعايتها، فزواها عنك. فعليك شكر تلك الأيام التي كنت متلبسًا بها فيها، والاستغفار من تفريطك. أرأيت رجلًا أجلسك في داره يطعمك ويسقيك عشرة أيام، ثم قال لك: انصرف؛ أيكون مسيئًا إليك أم

محسنًا؟ إن قلت: مسيئًا إليك، فأنت مجنون؛ فإنه لم يكن عليه حق لك، وقد أحسن إليك هذه المدة. فبأي طريق يجب عليه أن يديمها. وإن قلت: يكون محسنًا، وقد أزالها بلا سبب، فما ظنك برب لا يزيل النعمة إلا بسبب منك! ألست أنت الظالم! حُكي أن ملكًا مات له ولد، فأفحش في إظهار الحزن عليه والتسخط بسبب ما أصابه. فأتاه آت، فقال: «أيها الملك، إن لي صاحبًا أودعني جوهرة، فكانت عندي مدة. أتلذذ برؤيتها، ثم إنه استرجعها، وأنا أسألك طلبه، وإلزامه بإعادة الإيداع». فقال له: «كيف ألزمه بأن يودع ما له عندك». فقال له: «فالله أودع عندك ولدًا لك هذه المدة، ثم استرده، فلم هذا التسخط!»، فانشرح صدر الملك، ورفع العزاء. وأنشد بعضهم:

وَمــا المــالُ وَالأَهلــونَ إِلّا وَديعَــةٌ وَلا بُــدَّ يَومــاً أَن تُــرَدَّ الوَدائِــعُ

فإن قلت: قد يزيلها زيادة في رفع الدرجات؛ فاعلم أن هذا مقام عسر لم تصل أنت إليه، فليس كلامي مع أهل هذه الطبقة؛ إنما كلامي مع جمهور أهل هذا الزمان، الذي اندفعنا إليه. ولو كان كلامي مع أهل هذا المقام لقلت لهم: تلك نعمة تبدلت بأعظم منها؛ ولا يقال: إنها زالت»[1].

فإذا أدرك العبد هذا المعنى، وعلم أن الهم لا يرفع دفعة واحدة، وأن دواءه ليس في التغافل، بل في الصدق مع الله، والانكسار بين يديه.. أعاد ربط قلبه، ووزن

---

[1] معيد النعم (ص ١١٥).

أموره بميزان الحق؛ فخف عنه ما ثقل، وبدأ يومه الجديد على قدر ما صلح من أمسه. ومن هنا تتبين حكمة الشرع في توجيه النفس إلى الصبر وضبط التعلق، لا إلى طلب السلامة المطلقة؛ فإن السلامة التامة ليست من شأن هذه الدار. وإنما السعادة الحقة أن يستقر القلب على أصل ثابت، وإن اضطربت الأحوال، وأن يبقى الميزان قائمًا، وإن اختلطت المقادير.

خاتمة اليوم

ويختم مقامه هذا بالدعاء؛ يسأل الله قبول ما مضى من صالح عمله، وتيسير ما هو آت من أيامه، ويحدث نفسه بالقيام بواجب الجهاد متى نزلت ساعته، وكان له إليه قدرة وعدة؛ فيربط ليله بنهاره، ويجعل الخلوة زاد المواجهة، والانكسار وقود العزم.

ثم إذا فرغ من صلاته اضطجع في فراشه بنية الاستيقاظ قبل الفجر، قاصدًا الوتر، مستصحبًا عهده مع الله، يقرأ من الأذكار ما حضر قلبه مع لسانه، لا قراءة عادة مجردة، بل قراءة استحضار وتسليم. ثم ينام وقد أودع ليلته ما استطاع من الزاد، ليقوم إلى يومه القادم.. وقلبه أخف، ونفسه أصفى، وعزيمته أوثق، مستعينا بالله على ما يستقبل من عمل وابتلاء وسير.

قال حجة الإسلام: «واعلم أن النوم مثل الموت، واليقظة، فكن مستعدًّا للقائه، بأن تنام على طهارة، وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك، وتنام تائبًا من

الذنوب، مستغفرًا، عازمًا على ألا تعود إلى معصية. واعزم على الخير لجميع المسلمين إن بعثك الله تعالى، وتذكر أنك ستضجع في اللحد كذلك وحيدًا فريدًا ليس معك إلا عملك، ولا تجزى إلا بسعيك. ولا تستجلب النوم تكلفًا بتمهيد الفرش الوطيئة؛ فإن النوم تعطيل لحياة، إلا إذا كانت وبالًا عليك؛ فنومك سلامة لدينك. واعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فلا يكن نومك بالليل والنهار أكثر من ثماني ساعات، فيكفيك إن عشت مثلًا ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك»[1].

وقال العلامة المحقق: «المفسد الخامس: كثرة النوم، فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران. ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق وحصول القسم وحلول البركة، ومنه ينشأ

---

[1] بداية الهداية (ص ١٢٥).

النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر. وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، فما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه. ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، وكان النبي ﷺ يكرهه، فهو مكروه شرعًا وطبعًا. وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير، وبالله المستعان»[1].

الموت والنوم

أشبه حالة من حالات الإنسان الحياتية بموته هي حالة النوم، ذلك أن الله يسلبه كثيرا من إدراكه حالة نومه؛ فيصبح كالميت، وقد قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]. لهذا الشبه بين الحالتين؛ كان لا بد على السالك إلى الله أن يستحضر

---

[1] مدارج السالكين (٢/٩٧).

الموت حال نومه، بأن يزيل كل درن من أدران النفس حتى إذا توفي.. لقي الله سالما، واستحضار هذا الأمر كان من دعاء رسول الله ﷺ كما روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»[1]. وإن كان بين الحالين شبهًا؛ فإن الراحة في النوم سببها الأكبر نفس سبب راحة الموت، والعكس! وقد قال سبحانه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٣-٣٠].

من ذلك يُعلم أن مَن قصّر في عمله اليومي، وانغمس في العصيان والفسوق لن تكون له نومة هنية، ومَن كان ذا نفس مطمئنة، عابدًا لله سائرًا في طاعته، تائبًا إذا ما أذنب؛ فإنه ينام راضيًا مرضيًّا.

---

[1] البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) واللفظ له.

قال شيخ الإسلام: «فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في بدنه بعضها في بعض ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل والنفس البرة التقية النقية التي قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من في السقاء وكالشعرة من العجين»[1].

والحمد لله رب العالمين

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٠).